خاصية المنبر الاتصالية

وحتمية إضافته لوسائل الاتصال الجماهيرية

د.عوض إبراهيم عوض *

مقدمة

هناك أمران أساسيان تروم هذه الدراسة أن تطرحهما من خلال الاستقراء التاريخي والعلمي لحقيقة المنبر، **أولهما**، الإجابة عن سؤال هل المنبر وسيلة اتصال؟؛ وإذا كان ذلك كذلك فأيُ نوع من أنواع وسائل الاتصال هو؟، وإذا كانت للمنبر هذه الصفة فلماذا لم يضعه علماءُ الاتصال ضمن التصنيف الذي حوته المراجعُ العلمية واعتمدته معظم المؤسساتِ من خلال مناهجها لعلم الاتصال؟.

والأمر الثاني، هو جدلية التقسيم الشَّكلي لوسائل الاتصال ، وحقيقة مُجافاتها للواقع -بحكم أن تأطيرها النهائي الذي لم يكتمل إلى اليوم -اعتبره البعضُ منزهاً عن النقائص ولا يجوز تعديله بأي حالٍ من الأحوال ، ووفقاً لذلك ظلت معظم مراجع علم الاتصال تدور في فلك التقسيم التقليدي الذي تمَّ من خلال اجتهادات أساتذة الاتصال الغربيين أمثال ولبر شرام "Wilber Schram" ومارشال ماكلوهان Marshal Mcluhan وجون بتنر "John Bitner" وهارولد لاسويل "Harold Lasswel"l ووالتر ليبمان "Walter Lippmann" وغيرهم. فهل هذا هو القولُ الفصل في تصنيف وسائل الاتصال؟.

وقبل الرد على هذه التساؤلات لا بد من التأكيدِ على مشروعية هذه الأسئلة من خلال استقراء الحقائق والواقع العلمي لوسائل الاتصال. وفي واقع الأمر فقد أشار عددٌ من أساتذة الاتصال المسلمين إلى دور المنبر كأداة اتصال هامة في تاريخ المسلمين [1]؛ ولكنهم وقفوا عند حدود الإشارة إلى هذا الدُّور بشكل معمّم لم يَخُضْ في التفاصيل وتأطير الملامح التي حدت بهم لاعتباره كذلك ؛ ولذلك نستطيعُ أن نصف هذا التعميم بالقصور طمعاً في وضع الأمور في قوالبها الصحيحة ؛ وذلك لأن التنظير العلمي لإضافة حقائق أو رفضها لا يتم بالبساطة التي قد تتبادر إلى الأذهان، ومِنْ مؤشرات هذا القصور الذي نزعمه أنه لم يجرؤ واحدٌ من علماء المسلمين على وضع المنبر ضمن وسائل الاتصال الجماهيرية التي قصرها التصنيف الغربي على سبع وسائل هي: "الصحيفة، والكتاب، والمجلة، والتسجيل الإلكتروني، والسينما، والراديو، والتلفاز".

---

* دكتوراه في وسائل الاتصال الجماهيرية من جامعة الملايو 1996م ، أستاذ مساعد للإعلام بجامعة أفريقيا العالمية بالخرطوم.

[1] حامد عبد الواحد: الإعلام في المجتمع الإسلامي، سلسلة دعوة الحق إدارة الصحافة والنشر، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، 1984م، ص 16.

لقد اكتفى علماءُ المسلمين بالإشارة إلى المنبر كوسيلة اتصال، وذلك من خلال تسليط الضوء على الخاصية التاريخية لخطبة المنبر في ترسيخ مفهوم الدِّين وقضية العبادة كرابط أزلي بين العبد وربه. ومن ذلك ما ذهب إليه الكاتب محمد خير رمضان يوسف في كتابه "من خصائص الإعلام الإسلامي"، والكاتب الدكتور مرعي مدكور في كتابه" الإعلام الإسلامي الطباعي" ، والإمام محمد أبو زهرة في كتابه "الخطابة أصولها وتاريخها في أزهر عصورها عند العرب"، والكاتب يوسف محي الدين أبو هلالة في كتابه "الإعلام الإسلامي وتطبيقاته العملية".

ولعل هذه الحقائق التي حوتها المراجعُ الإسلامية قد طرحت أمراً هاماً ، ولكنه بدهيٌ، ولم يُسهم بالقدر المطلوب في طرق الأبواب لتمكين هذا المارد الإعلامي الخطير من الولوج وأَخْذِ مكانِهِ الحقيقي بين وسائل الاتصال العالمية. ولكن بالرغم من كل ذلك فإنَّ لهذه الإشاراتِ أهميتَها الخاصة في اختصار الطريق أمامَ هذه الدراسة لتتخطى المراحل الأولى وتقفز إلى تمييز الخصائص وترسيم الشكل المطلوب لتأطير هذه الوسيلة المُبعدة قسراً وعنوةً، وإتاحة معرفتها للحادبين على أمر التأصيل الحقيقي لعلم الاتصال.

وللإجابة على السؤال المطروح في صدر هذه الدراسة فإننا نؤكِّد أنَّ المنبر هو وسيلة اتصال، ولكننا لا نريدُ هنا الاكتفاء بهذا الوصف كما فعل السابقون، وإنما نريدُ أنْ نؤكِّد وننبهَ العالم بما أغفلَهُ الجميع - مسلمونَ وغيرُ مسلمين - بأنَّ المنبروسيلةُ اتصالٍ جماهيرية وليس فقط وسيلة اتصال. والفرق شاسعٌ بين الاعتبارين [1] كما سنشيرُ إلى ذلك في موضعٍ آخر من هذه الدراسة.

ولكنْ قبلَ الخوض في التفاصيل لا بُدَّ أنْ نُشيرَ إلى أنَّ المنبر قد ظهر أساساً لتقديم خطبة المسجد التي كانت بمثابة وسيلة الإعلام الأساسية في دولة الإسلام الأولى ، والتي اعتمدت على هذا النمط الاتصالي بحكم طبيعة المرحلة التي لم تشهد بَعْد توسعاً في أدوات الاتصال. ولكنَّ السبب الأهم من ذلك هو خاصية الديمومة في طبيعة المنبر التي جعلته مواكباً ومتجدداً في ذاته طوال المراحل حتى بعد بروز أدوات الإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية. وقد اكتسب المنبرُ تلك الخاصية من خلال تأثره بطبيعة الرسالةِ القرآنيةِ ذاتِها التي قضى اللهُ سبحانه وتعالى أن تكون مُتجددةً، ولا تَبْلَى بكثرةِ الرد، ولا يملها سامُعُها مهما تقادمت العصور والأزمنة. وهذا واحدٌ من أسرار المنبر التي دعت لوضع هذه الدراسة.

والمنبرُ لم يجد موضعاً في تصنيف أشكال الاتصال وذلك لأسبابٍ عديدة من أهمها أنَّ الذين قسَّموا هذه الوسائل هم العُلماء الغربيون. حيثُ تَمَّ التقسيمُ على مرحلتين أولاهما: تقسيمُ الاتصال من حيثُ الشكل، وهو الذي اقتضى أن تكون أقسام الاتصال هي:

1- الاتصال الذاتي " Intrapersonal ".

2- الاتصال الثنائي "Interpersonal ".

---

(1) Boyd, Andrew: Broadcast Journalism: Teaching of Radio and TV. Laws, Heinemann London: 1990.

3- اتصال المجموعات الصغيرة "Small group communication".

4- الاتصال الجمعي "Public communication".

5- والاتصال الجماهيري "Mass communication".

ولم يكن هذا التقسيم في حد ذاته شافياً لتوصيف الفعل الاتصالي بدليل أنَّ الاتصال الثنائي الذي قام على أساس العلاقة بين شخصين- لا ثالثَ لهما- اضْطُرَّ في نهايةِ المطاف أن يَجمعَ في إطاره الحوار الذي يتم بين ثلاثة أو خمسة أفراد ما دام العدد محصوراً ومادة الحوار مشتركة يتبادل فيها الجميع الحديث من خلال توظيف ردِّ الفعل الآني Immediate "Feedback". وحاول البعض تفادي هذه الإشكاليّة بإضافة الشَّكل الرابع للاتصال والذي أسموه الاتصال الجمعي. ولكن صعب تصنيف هذا النوع، وتحديد عدد المشاركين فيه، وتحديد ما إذا كان الجميعُ مشاركين في الحديث أم أنّ بعضهم مستمعون كما في حالة الفصل الدِّراسي أو المحاضرة العامة. ومن ذلك حاول البعضُ اختصار الطريق باعتبار خُطبةِ المنبر مثل المحاضرة التي تُلقى على الدارسين في قاعات الدراسة، ورمزوا لها بالاتصال الجماعي Group "Communication" [1].

ويرى الباحثُ أنَّ علماء الاتصال الغربيين لم يعتبروا المنبر من أدوات الاتصال الجماهيرية للأسباب التالية:

أولاً: لعب عُنصرُ العداء المستفحل للإسلام ومعطياته الحضارية دوراً في غض النظر عن كل ما يمت إليه بصلة في إطار التوصيف العلمي لإفرازات المعرفة البشرية الحديثة. وقد نبع هذا العداء من سيطرة اليهود وهم الأعداء التقليديون للإسلام على مفاتيح علم الاتصال.

ثانياً: قعود العلماء المسلمين عن أداء دورهم في فرض الحقائق التي تخصهم على عالم المعرفة من خلال التنظير والتأطير وتثبيت الحقائق . وهذه النقطة لا بد من التركيز عليها لأنَّ السنوات القادمة ستشهد الكثير من إعمال معاول الهدم للثقافة الإسلامية ما لم يَتَصَدى عُلماءُ المسلمين لتأكيدِ حقيقتها والدفاعِ عنها وفرضها على عالم الواقع من خلال التجربة العملية والتنظير الفكري.

ثالثاً: زُهدُ أمةِ المسلمين في قنواتِ الاتصالِ الحديثة والنفور عن الخوضِ في مُعتركاتها الشائكة بدعوى أنها تدخلُ في إطار المُحرمات.

وتأكيداً لهذه الأطروحة نستطيعُ أن نجزمَ أنَّ المسلمين قد وقفوا موقف المتفرج لسنواتٍ عديدة تجاه أجهزة الاتصال ؛ رغم أنها قد أصبحت الوسيلة الأخطر في العالم لخلق التغيير وبسط المفاهيم بغض النظر عن حقيقتها أو واقعيتها. ورغم شعور المسلمين بهذه الخطورة ومحاولة بعضهم للتصدي لها إلا أنَّ معظم هذه المحاولات قد باءت بالفشل ؛ لأنها لم تكن بالفعالية المطلوبة، ولا بالقدر الكافي في معظم الأحيان. وذلك لقصور الأدوات التي

---

[1] أنظر محمود محمد قلندر: الاتصال الجماهيري النظريات والوسائل والنماذج، دار يونيفيزيون للطباعة والنشر، كوالا لمبور،1999م، ص 26.

اســتخدموها في محاربة الظاهرة الإعلامية. حيثُ ركنَ بَعضُــهم إلى تحريم السـماعِ للراديو ومشــاهدة التلفزيون والسينما [1]. وكان الأجدى أن يتعاملوا مع هذه الوسائل بالأسلوب الذي تستحقه من حيث المشاركة ، وفرض بدائل للمحتويات، وملء الفراغ، ووضــع الأســس الحقيقية لفكرة التأثير والتأثر التي تبناها علماءُ الاتصــال. وذلك لأنَّ الإسلام هو الدِّينُ الأغنى إذا ما طرحنا مادته بالشَّكل المقبول لدى المتلقين والقائمين بأمر الاتصال.

وفي الوقت الذي حارب فيه علماء المسلمين وقادتهم السِّياسيون قنوات الاتصال العالمية بدعوى كُفرانيتها ، وأنها رِجْسٌ من عَمَلِ الشيطان، دأب الغربيون - ومعظمهم أعداءٌ للإسلام- على الاستفادة القُصوى من هذه القنوات. كما عملوا على تطويرها وجعلها أكثر فاعليةً وتأثيراً على البشــرية. وطوال الفترة التي قضــوها في هذا التخطيط والتنظير لم يضــع المسـلمون أُســساً منهجية أو برامجَ علمية تدحضُ ما يقولونه عن الإســلام أو تؤكِّد حاكميته في الأرض. كما لم يخلقوا قنواتٍ تُضــارع هذه القنوات الغربية أو تكونَ بديلاً يملأُ الفراغَ لدى المتلقين الذين تأثروا وتفاعلوا معها ، وفي نفس الوقت لم يسـكت علماءُ المسـلمين عن انتقاد هذه القنوات وصــبِّ جامِ غضــبهم على مَنْ صـنعوها ومَنْ زودوها بالبرامج ومَنْ طوروها حتى أصـبحت كالماء والهواء لدى الجميعِ بما فيهم هؤلاء المسـلمين أنفسهم. ، ولما لم يجد العالم ذلك البديل لجأ إلى وسائل الاتصال الغربية وتشرَّب بما فيها باعتبار أنها العطاء الأوحد المطروح في الســاحة. وقد خلقَ هذا الواقع شــكلاً مِنْ الحياد في نفوس المتلقين تجاه الثقافة الغربية التي بَدَتْ مَقبولةً في نهايةِ المطاف لكثرة العرض وتكرار معطياتها على المتلقين.

وتطور الأمرُ أكثر من ذلك عندما أصـبحت هذه الثقافة هي الغالبة على البشـرية. مما جعلها مقبولةً ومُفَضَّـلة في كثيرٍ من الأحيان حتى لدى الذين حاربوها وأرادوا القضاء عليها بوسائل لم يُحسنوا استخدامها. وفي النهاية اتسع الخَرْقُ على الراتقِ كما يقولُ المثلُ العربي، وأصـبح من الصــعبِ إن لم يكن من المسـتحيلِ احتواءُ آثار هذه الثقافة التي فرضتها وسائل الاتصال ، كما أصبح من الصعب إقناعُ العالم بمعطيات الثقافة الإسلامية التي ظهرت بأساليب أقلَّ تحفيزاً للمتلقين لا لقصورها وإنما لقصور القنوات وأساليبِ العرض التي قُدِّمت بها، وهذا هو بيتُ القصيد.

وكان الأجدى بالكُتَّاب المسلمين الذين تعرضوا لوسائل الاتصال أن يطرحوا هذا الأمر ولو من باب السبق التاريخي أو التذكرة، ولكنهم أغفلوه شـأنهم شـأن الكُتَّاب الغربيين. ومن أمثلة ذلك ما طرحه الدكتور يوسـف محي الدين أبو هلالة في كتابه "الإعلام في ديار الإســلام". حيثُ تعرَّض في هذا الكتاب الهام لهوية الإعلام في ديار الإســلام، ثم عرج مباشــرةً للحديث عن بداية ظهور الصــحافة في العالم الإسـلامي، ثم الإذاعة فالسـينما والتلفزيون ووكالات الأنباء والفن والمسـرح والكتاب. واختتم دراسته بالحديث عن أسباب الهجوم الخفي على الإسلام وإنكار السُنة النبوية والتشكيك فيها. إلا أنه لم يُشِرْ من قريب أو من بعيد إلى المنبر كأول وسيلة اتصالٍ جماهيرية عرفها المسلمون في دِيارهم قاطبةً ونقلوها إلى كل الأمصار

---

[1] محاضـير محمد : الإسـلام الذي أُسـيء فهمه، ترجمة د. عوض إبراهيم عوض، المركز العربي الأفريقي، سـنديرن برهد، كوالالمبور ،1996م، ص 71.

التي دانت بالإســـلام ومنها إمبراطورية الفرس وإمبراطورية الروم ثم البلاد الأوربية عن طريق الأندلس ، وكان من باب أولى ذكر المنبر على الأقل عندما ذكر الكاتب في مقدمته بصفحة (8) أنَّ في إعلامنا المعاصر فتنةً فاضحة وجاذبيةً مردية تتعرض خلالها الشعوب الإسلامية للمسخ المُشين الذي يُفقدها شخصيتها ويطعنها في كرامتها ، ومردُّ حنِّنا على ذكر المنبر في هذا المقام أنه قد لعب دوراً تاريخياً هاماً في دَرْءِ الفِتَنْ، وكشف جوانبها التي طعنت الأمة الإسلامية في المَقَاتِلْ [1].

وكان من أسباب تهميش دور المنبر أيضـاً في مراحل التنظير أنَّ الشـرط الأسـاسـي لتعريف وسـائل الاتصـال الجماهيري هو أنها تحتاجُ إلى قناة. وقد تَمَّ تعريفُ القناة بأنها الوسـيطُ الذي ينقل الرسـالة من المرسـل إلى المسـتقبل وفقاً لنموذج الاتصـال المبسط الذي ينقسم إلى ثمانيةِ عناصـر أساسية هي: المرسل، المتلقي ، الرسالة ، القناة ، التشفير ، حل الرموز ، التغذية الراجعة ، والتشويش [1].

كما استُبعدَ المنبرُ أيضـاً في مرحلة تقسيم القنواتِ ذاتها عندما اعتمدت دوائر الاتصـال العلمية الوسـائل الجماهيرية المتعارف عليها وهي: "الكتاب ، والصـحيفة ، والمجلة ، والتسـجيل ، والسـينما ، والراديو ، والتلفاز". حيثُ وقفَ جميعُ المنظرين عند هذا التقسيم. ولعلنا نرى أنَّ هناك ثلاثةَ مبرراتٍ يمكن أن تكونَ السببَ في عدم اعتبار المنبر وسيلةَ اتصـال جماهيرية ، وهي:

أولاً: إنَّ من خصـائص وسـائل الاتصـال الجماهيرية أنها سـريعة "Rapid" في أداء دورها للحد الذي ينتفي معها عنصرُ الزمان في وصول الرسالة كما في حالة الرسالة الإذاعية عبر الراديو أو التلفزيون والتي تصل في لحظة بثها من جهاز الإرســـال. ولكننا نقولُ لمن يركنون إلى هذا الادعاء إنَّ المنبر هو أول الوســـائل الإعلامية على وجه الأرض التي اعتمدت هذا العُنصر "السرعة" بحكم وحدانية الزمان والمكان بالنسبة للمرسل والمتلقي.

وكانت ســـخونة الأحداث وغزارتها في المجتمعات الإســـلامية ظاهرةً وجليةً للعيان، مما جعل من التحليل والاستقراء واتخاذ القرار الفوري فيها أموراً لازمت خُطبةَ المنبر في كل العصور. وبحكم مُلاحقة الخطبة للأحداث اليومية وإجلاء تفاصـيلها والرد عليها فقد طالت القضـايا جميعَ سـكان الدَّولة بما فيهم المناوئين من العناصـرِ التي ناصبت الدولة الإسلامية العداء. وبهذه الخاصية تجاوز المنبر وسائل الاتصال الجماهيرية الأخرى بعنصرٍ إضافي هو بناء رسالته على ثلاثة عناصر بدلاً عن عنصرين، وهي الإعلام، والتعليم، والتذكرة. حيثُ تفرّد المنبر بعنصر التذكرة بين وسائل الاتصال الأخرى بحكم أنَّ الإسلام قد قام على أساس وحدانية الخالق، ودعا الناس إلى ذكر الله، حيثُ قال اللهُ في محكمِ تنزيلِهِ: [ألا بذكر الله تطمئن القلوب][1] ، وقال: [لعله يتذكر أو يخشى] [2] [يذكرون الله

---

[1] يوسف محي الدين أبو هلالة: الإعلام في ديار الإسلام، بداية ورسالة، دار العاصمة، الرياض 1408هـ، ص 75.

[1] Shirley Biagi: The Media Impact, Wadsworth Publishing Company, Washington ,1997 P. 33

[1] سورة الرعد الآية:28

[2] سورة طه الآية:44.

قياماً وقعوداً وعلى جنوبهـــم][3] . وبناءً على ذلك اهتم الإسلامُ بقضية بناء الإنسان على أساس القيم والحث على التطور والنماء وجلب المنفعة من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولذلك جاء عنصر العبرة في الرّسالة المنبرية، وهو العنصرُ المفقود في وسائل الاتصال الأخرى ناقلاً للإنسانية قيماً أكبر من قيمة تلقي المعلومات من المصدر. صحيحٌ أنَّ بعضَ قنواتِ الاتصال قد استخدمت عنصر العبرة والتذكرة في بعض الأحيان ولكنه استخدامٌ عارِضٌ بدوافعَ فردية أملتها في معظم الأحيان طبيعةُ المتحدث الذي لا تدعمه بالضرورة فلسفةُ المؤسسة الاتصالية التي يتحدثُ من خلالها. وأقربُ مثالٍ لذلك الحديثُ عن الحج الذي بثته شبكةُ السِي إنْ إنْ "CNN" إبَّانَ موسم الحج الأخير لعام 2000م والذي نقلت فيه مناسك الحج حيةً على الهواء من مكة المكرمة. والسبب في هذا أنَّ 95% من مؤسسات الاتصال العالمية الحاضرة، خصوصاً التي تهيمن عليها القوى الغربية نشأت على قاعدة تحقيق الربحِ المادي ولا شيء سواه [4].

ثانياً: إنَّ الإعلام الجماهيري لا بد له من وسيط "Medium". وهذا الوسيط في المدلول الاتصالي هو القناة "Channel". والقناةُ حسب تعريفها العلمي هي أي وسيلةٍ أو أداةٍ تقومُ بتوصيل الرّسالة من المرسل إلى المتلقي. وعلى المستوى الدلالي اعتبر علماء الاتصال اللُّغة كوسيط ناقل للفكرة والمعلومة. ومن ذلك كان التركيز المكثَّف على اللُّغة عندما بدأ علماء الاتصال دراسة ظاهرة الاتصال الإنساني طوال تطور حركة التأمل الفلسفي في الظواهر الاجتماعية. وقد نشر الفيلسوف البريطاني جون لوك "John Lock" في أواخر القرن السابع عشر مقالةً حول الفهم الإنساني أشار فيها إلى أهمية اللغة كوسيط للاتصال الإنساني تتحقق من خلاله أهداف ربط المجتمع ووصل أركانه [1]. وهي في نطاق الاتصال الجماهيري تشمل جميع الأجهزة المرئية والمطبوعة والمسموعة. أما في حالة المنبر فإنَّ معالم القناة تتضح بشكلٍ أكبر من قنوات الاتصال الأخرى بحكمِ أنَّ المرسل الذي غالباً ما يكون هو (الإمامُ) يُقدِّمُ رسالته إلى المتلقين وهم جمهور المصلين أو المستمعين للخطبة من فوق المنبر الذي يُعتبرُ وُجُودُهُ ضرورةً حتميةً في خُطبةِ الجمعة، لا يقدحُ في ذلك شكلُ أو حجمُ أو تصميمُ المنبر ، ومادام هذا الوجودُ قد أصبح ضرورةً لازمة فإنّه قد حقّق وجود القناة. والمنبر مثلُه مثلُ بقية وسائل الاتصال يتداخل فيه مفهوم التعريف بين القناة والمُرْسِلْ. وهذا التداخلُ يحدثُ في جميعِ وسائل الاتصال الجماهيرية المعروفة التي يصعب فيها التمييزُ بين القناة والمرسل والمتلقي في بعض الأحيان. ويتضح هذا التداخل بشكلٍ جلي عندما نقوم بتحليل أي عملية اتصالية تستخدم وسائل الاتصال الجماهيرية إلى عناصرها الأساسية. فالوسيلة تكونُ قناةً ومَصدراً، وتكون مُرسِلاً في نفس الوقت. والقناة تُصبحُ مُتلقياً "Receiver" في كثيرٍ من الأحيان. بل إنَّ المرسل نفسه يُصبحُ متلقياً عندما يتحول

---

[3] سورة آلُ عمران، الآية 191 {الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار}.

[4] Joseph R. Dominick, The Dynamics of Mass Communication, Sixth Edition, Mcgraw-Hill, 1999

[1] قلندر، مرجع سابق، ص 39.

المتلقي إلى مُرْسِـل في عملية الاتصـال الثُنائي من خلال رجع الصـدى "Feedback " في الرسـالة المبثوثة عبر وسـائل الاتصـال. وندلل على تفسير هذه الظاهرة بمثالٍ بسيط نأخذه من جهاز الراديو الذي نفتحه لمتابعة البرامج، حيثُ يمكننا أن نتساءل هل الراديو قناةٌ "Channel" أم مُستَقْبِل "Receiver" ؟ وبقليلٍ من التأمل نكتشف أنه الإثنانِ معاً. وذلك بأنَّ جهاز الراديو يُعتبر المُستقبِل الذي يلتقطُ الرسالة المبثوثة من محطة الإرسال الإذاعي "Rradio Station" وهذا لا خلاف عليه بحكم أنَّ العديدَ من المراجع العلمية قد أشـارت إليه ومنها كتاب وسـائل الاتصـال الجماهيرية للكاتب الأمريكي جون فيفيان "John Vivian" وكتاب المدخل إلى وسائل الاتصـال الجماهيرية لجوزيف دومنيك "Joseph Dominick" وغيرهما [1]. وهو في نفس الوقت قناةُ توصيل بالنسبة للمتلقي الحقيقي للرسالة وهو "الإنسان" الذي يستمعُ إلى هذا البرنامج. ولا شكَّ أنَّ الإنســان وحده هو مناط هذه الرســالة الإذاعية وليس جهاز الترانزســتور الموضــوع على الطاولة، بدليل أنَّ التأثير المطلوب والذي يظهر من خلال تغيير السلوك، وفهم الرسالة، والانسجام مع البرامج أو رفضها، وردود الفعل الناتجة عن ذلك، تنبع كُلُّها من الإنســان وليسَ من الآلة التي تتحول إلى قناة وليس مُســتَقْبِل في هذه الحالة. إذن فالراديو هو قَناةٌ وهو مُستقبلٌ في نفس الوقت. بل ويمكن أن نذهبَ إلى أبعد من ذلك ونعتبر الراديو مَصْدَراً أيضاً. صحيح أنَّ المصدر هو محطة الإرســال الإذاعية أيّاً كانت، ولكنْ لا بُدَّ من توضــيح أنَّ اعتبار المحطة الإذاعية كمصــدر يقتضــي النظر إليها من زوايا عناصــرها المتكاملة، وهي التي تتداخل فيما بينها لتُعطي تعريف المحطة. وهذه العناصــر هي الإنســانُ الذي يقرأُ المادة الإذاعية من داخل غرفة الإرسـال، ثم مجموعة الأجهزة الكهربائية المتداخلة في بعضـها مثل الأسـتديو، وجهاز المراقبة، وجهاز الإرسـال، والهوائي المسـتخدم في نقل الذبذبات الصـوتية إلى طبقة الآينوسـفير، ثم جهاز الالتقاط الذي يُكمل هذه الدورة والذي بدونه لا يسـتقيمُ أمر الرسـالة الإذاعية. وهذه العناصـر تُكملُ بعضـها بعضـاً، وغيابُ أيِ واحدٍ منها يجعلها قاصـرةً عن أداء دورها. إذنْ فجهازُ الراديو في هذه الحالة ليسَ مُستقبِلاً فقط وإنما هو عُنْصُـرٌ مُكمِلٌ لجهاز الإرسـال الذي يستهدفُ الإنسان. وبذلك تكون كل هذه الأدوات عناصر لعنصر واحد هو المُرْسِل. وفي هذه الحالة يمكن اعتبارُ الهواء هو القناة الناقلة للرّسـالة. كما يمكن اعتبارُ المايكروويف أو الموجات الأثيرية أو شبكة الإنترنت التي تمثِّل في مجموعها قنواتٍ تصـل المرسـل بالمستقبل. ولذلك يقولُ الإنسـانُ: سـمعت هذا النبأ من الراديو، كأنما الراديو الذي هو جهاز الاسـتقبال يُعتبرُ مصـدرَ المعلومات لهذا المتلقي ، وهذا صـحيحٌ بلا شـك. إذن فإنَّ قضية التداخل في هذه العناصر الثلاثة تجعلنا نفهم بسهولة إشكالية التمييز بين العناصر في وسائل الاتصـال الجماهيرية. وقد أصـبح من الصـعوبة وضـعُ حدودٍ واضحة تميُّز مختلف أسـاليب الاتصـال نظراً للتداخل بين منهج عمل كل منها. أي أنّ الفروق بين هذه الأسـاليب ليسـت فروقاً عمليةً واضـحة، ولكنها فروقٌ فلسفية في أغلب الأحيان. فإذا قيل إنَّ الإعلام عقلي والدعاية انفعالية في أسلوبها، نجد الدَّاعية يستخدم أحياناً أسلوبَ الفكرِ المنطقي، كما أنَّ كثيراً من الأخبار والمعلومات التي تُعتبرُ عناصرَ إعلامية يعزوها التفكيرُ العقلي والتسلسلُ

[1] عوض إبراهيم عوض: المدخل إلى وسائل الاتصال الجماهيرية، دار يونيفيزيون للطباعة والنشر، كوالا لمبور،1999م، ص 96.

المنطقي، ويَطْغَى عليها أحياناً أُسلوبُ التهويل والضخامة المفتعلة[1]. وبالتالي فلا بد من قبول هذا التداخل في وسيلة المنبر الذي هو وسيلةٌ اتصالية ، موصوفةٌ بالزمان والمكان ، ومُحددة بالاسم والموقع والحجم والشكل.

ثالثاً: تتميز وسائل الاتصال الجماهيرية بأنّ رسالتها تصل إلى جميع المتلقين بالتساوي وفي وقت واحد "Simultaneously". وعند النظر إلى هذه الخاصية من زاوية الطبيعة الاتصالية للمنبر نجدُ أنَّ الرسالة الاتصالية التي يؤدّيها المنبر وهي **"الخُطبة"** تصل إلى كل المتلقين المقصودين بها في وقتٍ واحد مثلُها مثلُ بقية وسائل الاتصال الجماهيرية. وربما زعم البعضُ أنَّ هذه الحقيقة ليست ثابتة بحكم أنَّ جمهورَ المتلقين لرسالة المنبر جمهورٌ محدودٌ بحوائط المسجد، ولكنَّ هذا الزعم ليسَ صحيحاً. حيثُ إنَّ المتلقين لرسالة المنبر هم كُلُّ الذين يلتقطون هذه الرِّسالة إما بطريقٍ مباشر أو عبرَ الوسائل المساعدة الأخرى كمكبرات الصوت والراديو والتلفزيون وغيرها. ونخلص من كل هذا إلى أنَّ المنبر يشترك في جميع الخصائص مع وسائل الاتصال الجماهيرية الأخرى التي تميّزت بالسرعة ، والمباشرة، والوصول إلى مختلف القطاعات المتلقيّة في وقتٍ واحد.

ومن ناحيةٍ ثانية فقد تأكَّد من خلال الملاحظة العادية واستقراء الواقعِ المُعيش في جميع البلاد الإسلامية والذي أكّدته الدراسات المختلفة أنَّ جمهور المتلقين لرسالة المنبر قد تخطّى حوائط المسجد، وأنّه ظلَّ في تزايُدٍ مستمر يوماً بعد يوم حتى بين غير المسلمين. وهذه الظاهرة قد أصبحت مُزعجةً لأعداء الإسلام خصوصاً في المساجد التي اشتهرت بوجود أَئِمةٍ علماء خُطباء مؤثرين يلمسُون قضايا السَّاعة وينقلون الرِّسالة في قالبٍ علميٍ دقيقٍ ومُقنِع. وقد ضاقَتْ ساحاتُ المساجد في كثير من الدول بجمهورها خلال السنواتِ الأخيرة، مما اضطرها لتوسيع ساحاتها إلى أقصى حدٍ ممكن. واستخدمت جميعُها مكبرات الصوت وأجهزة العرض التلفزيوني "Monitor" حتى يتمكن الجمهور من متابعة ما يُبثُ من عَلَى المنبر. كما لجأت العديدُ من المساجدِ الكُبرى إلى تسجيل هذه الخطب وتوزيعها على مختلف بقاع العالم عن طريق الموزعين مثلها مثل أشرطة الموسيقى والأفلام والبرامج التسجيلية التي يتلقاها الجمهور بكثيرٍ من اللهفة والاستمتاع. وأشهر مَنْ وصلت خُطبُهم عن طريق هذه الوسائل الشيخ "عبد الحميد كشك"، والشيخ "محمد متولي الشعراوي"، والشيخ "عبد العزيز بن باز"، والشيخ "عبد الله السُديس"، والشيخ "علي الطنطاوي". وكلها خطبٌ قُدمت على المنابر والتقطتها ألوف الآذان حيّةً على الهواء، ثم انتشرت في بلادٍ عديدة من خلال التسجيلات بحكم تأثيرها القوي في جمهور المتلقين.

وإذا صحَّ الزعمُ بأنَّ جمهور المنبر محصورٌ بحوائطِ المسجد كما قد يكونُ في بعضِ المدن الصغيرةِ أو القُرى النائية فإننا نقول إنَّ هذا لا يَقْدَحُ في كَوْنِ المنبر وسيلةَ اتصالٍ جماهيرية بدليل أنَّ التلفزيون الذي يُسْتَخْدَمُ في إرسال البرامج التثقيفية والتعليمية وغيرِها يَبثُ في كثيرٍ من الأحيان برامِجَ لجمهورٍ مَحدُودٍ ومحصور في إطار قاعةٍ أو غرفةٍ صغيرة من

---

[1] محي الدين عبد الحليم، مرجع سابق، ص 82.

خلال ما نُسميهِ الدوائرَ التلفزيونية المغلقة "Closed Circuit" في نِظام التعليم عن بُعْدْ [1]. وقد تبنت هذا النظام العديدُ من الجامعات المفتوحة والمؤسسات التعليمية الحديثة مثل معهد موش بتنزانيا. فهل غَيَّرَ هذا الاستخدام طبيعةَ التلفزيون وجعلهُ وسيلةً غيرَ جماهيرية؟.

وإذا سلَّمنا جدلاً بأنَّ جمهور المنبر محدود بالمسلمين الذين يحضرون الخطبة، وأنَّ رسالته تقتصرُ على الحاضرين داخل المسجد وهو مكان عبادة للمسلمين دون سواهم فإننا نقول إنَّ هذا الاقتصار لا يؤثر في اعتبار المنبر وسيلة إعلامٍ جماهيريةً. والدليل على ذلك أنَّ كثيراً من وسائل الاتصال الجماهيرية ظلَّت تستهدف جمهوراً معيّناً ومُحدَّداً بذاته. فجمهور المجلةِ محدودٌ في معظم الأحيان بحكم أن أهم خصائص المجلة التي تميزها عن الصحيفة أنها تهدف إلى خدمة جمهور محدَّد، وتحملُ رسالةً متخصصة لهذا القطاع المحدَّد من الجمهور [2]. وهي في كل الأحوال لا تخدم مُطلق الجمهور ولا تستهدفه بالخدمة حتى ولو تطوع هذا الجمهور وأصبح من زمرة قُرَّاء المجلة. ولذلك نجد مجلاتٍ مختصة بالمرأة ولا تستهدف غيرها من أفراد المجتمع. كما نجدُ مجلةً للطفل، وأخرى للرياضيين، وأخرى للمهتمين بشئون الاقتصاد، أو الكومبيوتر، أو المسرح وهكذا. ورغم أنَّ هناك العديد من الأفراد يقرءون كل ما يقع تحت أيديهم إلا أنَّ هذه المجلات قطعاً لم تستهدفهم ولم تصدر من أجلهم. وكذلك الكتاب الذي قد يستهدفُ العاملين بإحدى الكنائس أو الأديرة أو المؤسسات المختلفة، لا يمكن لأحدٍ أن يدَّعي أنَّ قراءته قد انحصرت بين رواد هذه الكنيسة أو تلك، أو العاملين بهذه المؤسسة، أو حتى بين أبناء الديانةِ المسيحية. وإنما من حق الجميع أن يَطَّلِعوا على مُحتوياتِه ما دام أنّه وسيلةً للاتصال مطروحةً بين أرفُفِ المكتبات. وحتى المصحف أو الإنجيل أو التوراة إنما كتبها أتباعُ هذه الديانات؛ ولكنَّ البشرية بأجمعها اطَّلعت على هذه الكتب المقدسة وتعاملت معها كُلٌ من زاويته وبالشكل الذي يُريده. وشبيهٌ بذلك برامج الإذاعات المختلفة والتلفزيونات وصفحات الإنترنت وغيرها من المواد الإعلامية المتوفرة للجميع. ولذلك فإنَّ المنبر سيظل وسيلةً للاتصال الجماهيري مثله مثل أي برنامجٍ إعلامي أو كتابٍ مفتوح حتى وإن كان هدفُهُ دينياً أو دعائياً لفكرة أو لعقيدةٍ بعينها أو لمنهج سياسي ما دام هذا المنهج مطروحاً لكل بني الإنسان وليس قاصراً على أحد.

المنبر وإشكالية التكرار والنقل الشفاهي :

ونتحولُ الآن إلى قضيةٍ أخرى صاحبت الحديثَ عن المنبر، وهي قضية التكرار في رسالة المنبر. وحتى يتواءمَ هذا الوصف مع طرحنا الذي نحنُ بصدده نقولُ إنَّ الخطبَ المنبريةَ اعتمدت في بعض المراحل المتقدمة خصوصاً أيام الدولة العباسية على تكرار الرسائل التي ورد بعضها إلى الأئمة المحدثين وظلوا يكررونها لفتراتٍ طويلة، بعضهم بحسن نية وبعضهم عن جَهْلٍ بظروفِ هذه الخطب التي صيغت فيها. وساد بينهم شيءٌ من الإحساس بقُدسية هذه النصوص. وبالرغم

---

[1] أنظر عوض إبراهيم عوض، ، لغة الإذاعة دراسة تحليلية، ط دار النشر جامعة الخرطوم، 2001م، ص 49.

[2] Joseph R. Dominick, , The Dynamics of Mass Communication, Sixth edition, McGraw-Hill 1999.

عن اعتراضـــنا على مبدأ التكرار والرتابة في الخطب المنبرية إلا أننا لا نملك غير التســليم بأهمية التكرار في بعض المواضع ولبعض النقاط إذا كان القصدُ منها ترسيخ المفاهيم أو تأكِّيد المعنى ، وحتى علم الاتصال نفسه قد أقَرَّ أنَّ التكرار يعتبرُ من العوامل المهمة في عملية الإدراك والتأثير الحسي الذي يُسهم في بلورة الرِّسالة الاتصالية. حيثُ اعتبره علماءُ الاتصال واحداً من ستة عوامل ذات صلة بالمؤثر المدرك في العمليات الاتصالية؛ وهذه العوامل هي: كثافة المؤثر ، حجم المؤثر ، التضاد ، التكرار ، الحركة ، الحداثة والألفة.

وتتبع أهمية التكرار من دوره في تثبيت المعلومة بذهن المتلقي، ولذلك كلما تكرّر الحدث أو استَمَرَّ لفترةٍ أطول كلما زادت احتمالات التقاطه وإدراكه [1]. ووفقاً لهذا المبدأ فإنَّ حفظ المعلومات أو النصـــوص إنما يتأتى كنتيجةٍ لتكرار هذه المعلومات وترديدها بشكل مستمر حتى يتمَّ التأكُّد من رسوخها في ذهن الإنسان. ولهذا السبب لجأت وسائل الاتصال المختلفة إلى ترديد أسماء المنتجات والسلع المراد الإعلان عنها، وذلك بغرض أنْ يؤدي هذا التكرار إلى رسوخ اسم السلعة لدى جمهور المتلقين ليذهبوا لشرائها من الأسواق.

والتكرار واحدٌ من أساليب المعرفة التي رسَّخَها الإسلامُ في أذهان البشرية، وهو ليسَ مرفوضاً في الثقافة الإسلامية إلا أنّه مرفوض وبشدة عند الغربيين الذين لم يألفوه ولم يدركوا الحكمة من ورائه . حيث تكرّر ذكر الأمم في القرآن الكريم ، وتكرّر وصف الثواب والعقاب ، وتكرّرت العديد من الأحكام الشَّرعية ، وتكرّر سرد القصص القرآنية كقصة إبراهيم (υ)، وقصة يوسف بن يعقوب مع امرأة العزيز ، وقصة آل عمران وقصة مريم وعيسى (υ) وغيرها . ولم يكن هذا التكرار بسبب الإفلاس أو النقص وإنما كان في جميع المواقف مكملاً للوصف، أو مضيفا أبعادا أخرى للقضية المطروحة من خلال الآيات ، أو لتركيز واقعة من الوقائع أو إكمال المعنى . ولذلك نعتبر التكرار في الخطب المنبرية وسيلةً من وسائل ترسيخ المعرفة. وليسَ المنبرُ في ذلك بدعاً من أساليب الأولين الذين حفظوا تراثهم وفنونهم وآدابهم في الأوعية المتاحة لهم وقتها، ثم نقلوا تراثهم للاحقين من أبنائهم عن طريق النقل الشفاهي بواسطة التكرار الذي أدى إلى حفظ المعلومات. ولولا أنّ اللـه I قد وهَبَ الإنسان فطرة حفظ المعلومات في الذهن والذاكرة لما تمكنت الأجيال اللاحقة من الإلمام بميراث الأجيال السابقة من معلوماتٍ ومعارف ولانقطع حبلُ المعرفة من القرن الأول للبشرية. وهذه النتيجة وصل إليها الغربيون قبل غيرهم، وأكدوها في العديد من مؤلفاتهم مثل كُوبَرْ"Cooper" الذي أوضح ذلك في مقاله بعنوان "بلاغة أر سطو" ووليامز "Williams" الذي ظهر في حديثه عن ثورة الاتصال الذي نُشر عام 1983م. ونحسبُ أنَّ انتقاد الغربيين للتكرار والحفظ قد نبع من زاويةٍ واحدةٍ فقط هي زاوية الحقد على معطيات الحضارة الإسلامية. وأقرب دليلٍ على ذلك ما فعله المستعمرون البريطانيون في بداية القرن العشرين عندما استعمروا السودان حيثُ منعوا أبناءَ السودانيين من

---

[1] قلندر، مرجع سابق، ص 67.

الحفظ، وقالوا لهم إنَّ الحفظ وسـيلةُ الجُهلاء والأغبياء لأنه أسـلوبٌ مُتخلِّف ويُعطِّلُ مَقدراتِ الإنسـان الذهنية عن التفكير. وسـرعانَ ما اكتشـفَ العالمون ببواطنِ الأمور أنَّ الإنجليز كانوا يعلمونَ تماماً أنَّ هذا الكلام خِدْعَةٌ ، وأنَّ الحفظ هو وسـيلة الأذكياءِ وليسَ الأغبياء ولا يقدر عليه إلا النابغون من البشـر، ولكنهم أرادوا أنْ يُشـيعوا تلك الكراهية حتى يتوقف الأطفالُ والكبارُ عن حفظ القرآن الكريم الذي أحسَّ الإنجليز بخطورته على بقائهم كمستعمرين للبلاد [1].

وأمرٌ آخر أخرج المنبر من إطار المحدودية بصحن المسجد، وهو عندما ننظر إلى المساجد التي فاض بها المصلون حتى خرجت صفوفهم إلى الشوارع والردهات القريبة والبعيدة من المسجد. وأقربُ مثالٍ لذلك المسجد الحرم بمكة المكرمة، ومسجد الرسول (ε) بالمدينة المنورة، ومساجد إيران. حيثُ إنَّ مسجدَ الجمعة في المذهب الشيعي يكونُ واحداً في المدينة. مما اقتضـى أنَّ يُصـليي جميعُ سكانِ المدينة خلف إمامٍ واحد، ويستمعون إلى خُطبةٍ واحدة. وهذا الأمرُ جعل شـوارع المدنِ الإيرانية تمتلئُ على سعتها بصفوف المصلين المتراصة في كل رُكنٍ من أركان المدينة. ونسبةً لصعوبة وصول صوتِ الإمامِ إليهم فقد ربطَ القائمون على أمر المساجد جميع هذه الشوارع والطرقات والمحلات والقاعات بشبكةِ مُكبراتِ الصوت وكل وسـائلِ الاتصـال الإلكترونية التي جعلت من كلِ مدينةٍ إيرانيةٍ مَسـجداً متمدداً في كل الزوايا والاتجاهات. وأصـبح المتلقون لخطبة الجمعة ملايين البشر الذين يلتقطونها في لحظةٍ واحدة، فهل تُعتبرُ رسالةُ المِنْبَرِ هنا محدودةً بإطارِ المسجد؟ وقد يقولُ قائِلٌ إنَّ المنبر يؤدي طقساً دينياً واجباً على المصلين فقط، وهو بذلك يخرج من إطار وسائل الاتصال الجماهيرية التي تبثُّ رسالتها دون محدودية الإطار العقدي أو الطقس العِبادي. ولكنَّ قرائنَ الأحوالِ تؤكدُ عدم صحة هذا الزعم، بدليل دور المنبر الذي اختلف عن أدوار الكنائس والأديرة على مر العصور. فقد ارتبط المنبر بالمسجد وهو دار عبادةِ المسلمين ليُحققَ مُرادَ اللهِ في خلقه ،حيثُ أرادَ بحاكميتِهِ أنْ يؤكدَ عبوديةَ الإنسـان التي هي مناطُ التكليف والسـموللنفسِ البشـرية. قال تعالى: [وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون] [1] وهذه الإرادة تُحققُ قضـيتين أسـاسـيتين هما العبودية والتعلُّم. وإذا كانت العبودية تُحقِّقُ كمالَ النفسِ البشـرية في مراقيها المتصـلة نحو الذاتِ الإلهية، فإنَّ التعلُّمَ هو وسـيلتُها المُثلى لتحقيقِ هذه المكانة. [قل هل يستوي الذينَ يعلمونَ والذينَ لا يعلمـــون] [1] كما يؤكِّد ارتباط العبادة بالتعلُّم قوله تعالى: [واتقوا اللهَ ويُعلمكم الله][2] والحديث الشـريف: **"مَنْ عملَ بما علمَ أورثه اللهُ علمَ ما لم يَعلَم"**، كأنَّ العلمَ المُستَقَى من المنبر يَقُودُ إلى لوازمَ يستصحبها عند تلقي الرِّسالة، وهي التطبيق الفوري للأحكام بعد تلقيِّها مباشرةً لارتباط الرِّسالة بالعبادةِ. وإذا نظرنا إلى هذا الأمر من زاويةٍ أخرى نلاحظُ أنَّ خُطبة الجمعة رغمَ أنها رُكنٌ مكمِّلٌ للصلاة، إلا أنها ليست طقساً مُقيداً بشكلٍ أو

---

[1] نفس المصدر، ص 88.

[1] سورة الزاريات الآية : 56.

[1] سورة الزمر الآية : 9.

[2] سورة البقرة ، الآية رقم 282 ، {وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يُضار كاتبٌ ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوقٌ بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيءٍ عليم}.

مضـمونٍ مُحدَّدْ. وهذا عنصـرٌ مهم لسـياقِ الطرحِ الذي نحنُ بصـدده. حيثُ إنها إذا كانت مُقيدة بهذا الشـكل لما صـلحت أن تكون رسـالةً إعلامية تُقدَّم للملأ، وإنما هي رسـالةٌ مفتوحةٌ ومتجددة تتغير بتغيُّر الزمانِ والمكان، وتتبدل حسـب الأحوال والمواقف ، وتتشكّل بتشكُّلِ الظروف المحيطة بكلِ جماعةٍ إنسانية. وهذا من أخصّ سماتِ الرِّسالة الإعلامية التي يُرادُ منها التغيير السُّلوكي وازدياد الحصيلة المعرفية للمتلقين. ورسالة المنبر ليست مرتبطة بنظامٍ أو بفردٍ أو بلغةٍ أو أسلوبٍ معيَّن. وإنما هي سلسلةٌ من المعلومات والموجهات والرسائل والدروس تصلُ إلى كل فرد حتى وإن لم يكن له وجودٌ داخلَ المسجد أو انخراطٌ في جماعة المصلين. وهذه النقطةُ مهمةٌ في التفريق بين الخطبة كطقسٍ مكمّلٍ للعبادة ودور المنبر كوسيلة اتصال تُبثُ من خلالها رسـالة الإعلام الجماهيري. حيثُ درجت معظم الدول الإسـلامية على إيصـال خُطبة الجمعة لرعاياها والقاطنين في حدودها أو خارجها في أماكن سـكنهم وتجمعاتهم عبرَ وسـائل الاتصـال الحديثة؛ وهذا بدوره خلق إشـكاليةً أخرى في أذهان الغربيين الذين اعتبروا استخدام وسـائل اتصـالٍ جماهيرية مُساعدة لنقل رسـالة المنبر إلى المتلقين سـبباً يحولُ دونَ اعتبارِ المنبر وسـيلةَ اتصـالٍ جماهيرية. كأنما أرادوا أن يقولوا إن وسـيلةَ الاتصـال الجماهيرية لا بُدَّ أن تقفَ بمفردها ولا تعتمد على وسـيلةٍ أخرى في نقل رسـالتها. وهذا الادعاء باطلٌ جملةً وتفصـيلاً ولا يقدحُ بأي حالٍ من الأحوال في اعتبار المنبر وسيلةَ اتصـالٍ جماهيرية. والدليل على ذلك أنَّ كل وسائل الاتصال الجماهيرية ظلَّتْ تَحْمِلُ رسائلَ بعضِها البعض إما بشكلٍ مستديم أو بشكل دوري أو عندما تقتضي الظروف. ومن ذلك مثلاً نجدُ مُحتوياتِ الصحف التي تُنقلُ يومياً للجمهور عبر الإذاعة من خلال ما يُسمى بأقوال الصـحف. حيثُ أسـهمت الإذاعة بذلك في حل مشـكلة الأميين ، ومشـكلة فاقدي البصر، ومشكلة الذين لا يستطيعون الحصول على الصحيفة إما لوجودهم خارجَ إطار المُدُنْ أو لأنّهم لا يملكون ثمن الشـراء. ثم إنَّ الراديو قد أسـهم في نقل العديد من مواد التلفزيون مثل الأغاني والأحاديث والمعلومات والخُطب والألعاب الرياضـية والاحتفالات وغيرها، مما أتاح للذين لا يملكون أجهزة تلفزيون أن يسـتمتعوا بقدرٍ كبير من مواد التلفزيون عبر الراديو رغماً عن اختلاف طبيعة التلقي بين الراديو والتلفزيون. وفي نفس هذا الإطار ظلَّ العديدُ من مشاهدي التلفزيون في قارة أفريقيا خلال سبعينيات القرن العشرين يضعون جهاز راديو فوق جهاز التلفزيون لمتابعة صوت المادة التلفزيونية من خلال موجات ال "FM" ذات القدرة العالية والنقاء الجيد. وذلك بالرغم عن وجود سـماعات الصـوت في جهاز الاسـتقبال التلفزيوني. والسبب في ذلك هو اشـتراك الراديو والتلفزيون على السـواء في اسـتخدام موجة ال "FM" قبل أن يتم التنازل عنها نهائياً بنهاية عام 1989م لمحطات الإذاعة في كل الدول الأفريقية [1].

أما بالنسـبة لوسـائل الاتصـال المطبوعة فإنَّ كثيراً من الكتب تَمَّ نشـرها في حلقات مُسـلسـلة على أعمدة الصـحف والمجلات. وكثيرٌ من المجلات أعادت نشر المقالات التي وردت بالصحف، خصوصاً تلك التي يكتبها محللون أو سياسيون كبار مثل محمد حسنين هيكل أو هنري كيسنجر وغيرهم. وفي السنوات الأخيرة حملت شبكةُ الإنترنت العالمية العديد من

[1] أنظر عوض إبراهيم عوض: الإذاعة السودانية في نصف قرن،دار الخرطوم للطباعة والنشر، الخرطوم،2000م ص 144.

برامج الراديو والتلفزيون وصفحات الجرائد اليومية والمجلات والإصدارات الجديدة من الكتب. ولم يَعُد الإنسانُ محتاجاً لفتح الراديو أو التلفاز أو شراء الصحيفة والمجلة ما دام يجد كل ذلك في شبكة اتصالٍ جماهيريةٍ واحدة هي شبكة الإنترنت. بل إنَّ الأسطوانات المضغوطة "CD" قد حملت في السنوات الأخيرة مواد مختلفة من روايات وأشعار وأفلام سينمائية وأحاديث وغيرها مما كانت تنقله أجهزةُ التلفزيون والراديو والمجلات والكتب. فهل غيَّرَ هذا من اعتبار كُلِّ هذه القنوات وسائل اتصالٍ جماهيرية لأنها نُقلت بواسطة الإنترنت؟ بالطبعِ كلا، ولذلك فالمنبر ليسَ بِدعاً من هذه الوسائل، ويمكنه بث رسائله بطريقٍ مباشر أو عن طريق استخدامِ وسائل مُساعدة متى ما أراد أو وقتما اقتضت الضرورة.

نخلصُ من كل هذا إلى نُقطةٍ أساسية هي أنَّ قنوات الاتصال الجماهيرية تحملُ رسائلَ بعضِها البعض بشكلٍ مستديم ومعروف. ولا يؤثِّرُ ذلك في كون أيٍ منها وسيلة اتصال جماهيرية. والمنبر عندما نقلَ رسالته عبر وسائل اتصالٍ أخرى هي في الغالب الراديو والتلفزيون إنما سعى لأن تصلَ رسالته لأكبرِ عددٍ من المتلقين وليس بغرض أن تُضيفَ هذه الوسائل الجماهيرية بُعداً آخر لرسالة المنبر. ولذلك اتَّسعت دائرة استقبال الرسائل المنبرية عبر الأقمارِ الصناعية دون أن تُشوشها الشركاتُ المسيطرة على هذه الأقمار. وما دُمنا بصدد التأطير لخصائص المنبر الاتصالية التي تجعل منه وسيلةً جماهيرية فإننا نقف في السطور القادمة على بداية نشأته والملابسات التي واكبت تطوره عبر السنوات لنرى كيف استطاع أن يلعب ذلك الدور الذي أَهَّلَهُ ليكونَ وسيلةَ اتصالٍ جماهيرية.

تاريخ المنبر :

لما وصل النبي (ε) إلى المدينة المنورة مُهاجِراً إليها من مكة بعد استفحال العداء من كفار قريش نزل بقُباء ؛ حيث كان يسكن بنو عمرو بن عوف من الأنصار. وكان أول عملٍ قام به هو بناء مسجد "قُباء" الذي ذكره الله (I) في القرآن الكريم: [لمسجدٌ أُسِّسَ على التقوى من أولِ يومٍ أحَقُ أنْ تقومَ فيه، فيه رِجالٌ يُحبونَ أن يتطهروا واللهُ يُحبُ المطهرين [1]]. وكان مسجد قُباء ذلك هو المسجد الأول في تاريخ الإسلام، وقد سُمي مسجد "التقوى" إشارةً للآية الكريمة السابقة والتي ذكرت أنه أُسس على التقوى، وأيضاً لدوره الريادي بين المساجد. وقد سماه النبي (ε) مَسْجِداً ليعني به المكان أو البيت الذي يُتخذ لاجتماع الناس للصلاة. ويُفسِرُ الزركشي السبب في اختيار كلمة مسجد لمكان الصلاة فيقول: " لما كان السجود أشرفَ أفعالِ الصلاة لقرب العبد من ربه اشتُقَّ اسمُ المكانِ منه فقالوا مَسجِداً ولم يقولوا مَرْكعاً "[2]. والمَسْجَدْ في اصطلاح العلماء بفتح الجيم هو موضع السجود أينما كان، أما بِكَسرِ الجيم "مَسْجِدْ" فهو المكان المُعَيَّنْ الموقوف لأداء الصلاة. وفي اصطلاح السالكين هو مظهرُ التجلي الجمالي ، وسُميَ عَتَبَةَ الشيخ، كما سُميَ المُرْشِدْ [3] بحكم دوره الروحي والتعليمي في

---

[1] سورة البقرة الآية 108.

[2] محمود علي عبد الحليم : المسجد وأثره في المجتمع الإسلامي، دار المعارف المصرية، القاهرة، ص 50-79.

[3] محمد مختار علي : دور المسجد في الإسلام، مطبوعات رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة 1420هـ.

حياة الإنسان. والمسجد في مفهومنا الشرعي هو كُلُّ موضعٍ من الأرض لقول النبي (ε)**"جُعِلَتْ لِيَ الأرضُ مَسجِداً"** وذلك لحديث جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ حيث قال: قال رسولُ اللهِ (ε): " **أُعْطِيتُ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً** " [1].

ويقول القاضي عِياض: " هذا من خصائص هذه الأُمة، لأنَّ مَنْ قَبلنا كانوا لا يُصلون إلا في موقعٍ يتيقنون طهارته. ونحنُ خُصِّصْنا بجواز الصلاة في جميعِ الأرض إلا ما تيقّنا نجاستَهُ " [2] .

ومنذُ الوهلةِ الأولى اتخذ المسلمون المسجدَ مكاناً متعدد الأغراض، حيثُ يلتقون فيه لأداءِ الصلوات الخمس، ويتدارسون القرآن، ويذكرون الله، وينظرون في القضايا التي تنشبُ بينهم، ويتشاورون في أمور الدِّين والدُّنيا، ويتعلمون فيه أصول القراءةِ والكتابة وغيرها من العلوم. مما جعلَ منه مؤسسةً متكاملة، ومظهراً للوحدة والتكاتف والنظرة نحو المستقبل. وكان مسجد قُباء متواضعاً وبسيطاً من حيثُ الشكلُ ومادة البناء، حيثُ لم تكن أرضيتُه إلا فرشاً من الحصى، وسقفه من جريد النخل الذي غطى بعضاً منه وترك أغلبه مكشوفاً لضيقِ ذات اليد. وعندما بُني مسجدُ الرسول (ε) كان منبره أول الأمر مجرد مكان مرتفع في الأرض إلى جانب مَوْضِعِ المِحْراب. وبعد ذلك صُنِعَ له منبرٌ خشبي اختلفَ الرواةُ في تاريخه. فمنهم من قال إنه كان سنة "6" للهجرة، ومنهم من قال إنها سنة "7" أو سنة "9" هجرية. ولكن رغم اختلافهم في التاريخ إلا أنَّ الرواةَ لم يختلفوا في الكيفية التي تمَّ بها إنشاء أول منبر؛ وهي أنَّ النبي (ε) وبعد فترةٍ وجيزة من إقامة ذلك المسجد دعا لإقامةِ مِنبرٍ فيه. ويتضحُ ذلك من حديث يحيى بْنِ يَحْيَى حينَ قال: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ نَفَراً جَاءُوا إِلَى سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَدْ تَمَارَوْا فِي الْمِنْبَرِ فَقَالَ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَعْرِفُ مِنْ أَيِّ عُودٍ هُوَ ، وَمَنْ عَمِلَهُ، وَرَأَيْتُ رَسُولَ (ε) أَوَّلَ يَوْمٍ جَلَسَ عَلَيْهِ -قَالَ- فَقُلْتُ لَهُ يَا أَبَا عَبَّاسٍ فَحَدِّثْنَا ، قَالَ: أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ (ε) إِلَى امْرَأَةٍ قَالَ أَبُو حَازِمٍ إِنَّهُ لَيُسَمِّيهَا يَوْمَئِذٍ " **انْظُرِي غُلاَمَكِ النَّجَّارَ يَعْمَلْ لِي أَعْوَاداً أُكَلِّمُ النَّاسَ عَلَيْهَا** ". فَعَمِلَ هَذِهِ الثَّلاَثَ دَرَجَاتٍ ثُمَّ أَمَرَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ (ε) فَوُضِعَتْ هَذَا الْمَوْضِعَ، فَهْيَ مِنْ طَرْفَاءِ الْغَابَةِ. وواصلَ عبدُ العزيز حديثه قائلاً: وَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ε) قَامَ

---

[1] أخرجه مسلم عن حديث محمد بن سنان عن هُشيم عن سَعِيد بن النَّضْرِ عن سيَّار عن يَزِيد بن صُهَيْب الفقير عن جَابِر بن عبد الله رضي الله عنهم.

[2] محمد علي التهانوي: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، الجزء الثاني: تحقيق علي دحروج، مكتبة لبنان، بيروت ،1996م، ص 1535.

عَلَيْهِ فَكَبَّرَ وَكَبَّرَ النَّاسُ وَرَاءَهُ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ، ثُمَّ رَفَعَ فَنَزَلَ الْقَهْقَرَى حَتَّى سَجَدَ في أَصْلِ الْمِنْبَرِ، ثُمَّ عَادَ حَتَّى فَرَغَ مِنْ آخِرِ صَلاَتِهِ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ **" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إني صَنَعْتُ هَذَا لِتَأْتَمُّوا بِي وَلِتَعَلَّمُوا صَلاَتِي"**[1] .

ولا يُشترط في المنبر أن يكون صغيراً أو كبيراً في الحجم. ويبدو أنّ النبـي (ε) قد تعامل مع منابر بأحجام مختلفة. ورغم أنَّ الفقهاء لم يُحدِّدوا حجم منبر الرسول(ε) إلا أنَّ إشارة الْمُنْذِرِ بْنِ جَرِيرٍ تؤكِّدُ أنَّ هناك منابر كبيرة بحكم إشارته لأحدها بالصغر حيثُ قال نقلاً عن أبيهِ: كُنْتُ جَالِساً عِنْدَ النَّبِيِّ (ε) فَأَتَاهُ قَوْمٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ وَسَاقُوا الْحَدِيثَ بِقِصَّتِهِ وَفِيهِ فَصَلَّى الظُّهْرَ ثُمَّ صَعِدَ مِنْبَراً صَغِيراً فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ " أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ فِى كِتَابِهِ : [يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ] الآيَةَ [2]. لعلَّ هذه هي الإشارة الوحيدة التي وقفنا عليها عن حجم المنبر ولكن يبدو أنه كان كبيراً في معظم الأحوال بحكم تخصيص هذا المنبر المشار إليه بالصغر.

ويتضحُ مما سبق أنّ المنبر قد صُنِعَ أول أمره من أعواد الشجر. وهو الذي أشار إليه بعضُ السلف حينَ قالوا إنَّ العودَ قد حنَّ إلى النبي(ε)عندما تركه وبنى منبراً للمسجد. وقد اعتُبرَ ذلك إحدى كراماته (ε) . بعد ذلك ورد أنَّ مادة المنبر قد تغيرت من الخشب إلى الطين . وقد أشار إلى ذلك يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ وَقُتَيْبَةُ وَابْنُ حُجْرٍ حيث قَالُوا: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ε) كَانَ يَخْرُجُ يَوْمَ الأَضْحَى وَيَوْمَ الْفِطْرِ فَيَبْدَأُ بِالصَّلاَةِ فَإِذَا صَلَّى صَلاَتَهُ وَسَلَّمَ قَامَ فَأَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ وَهُمْ جُلُوسٌ فِى مُصَلاَّهُمْ، فَإِنْ كَانَ لَهُ حَاجَةٌ بِبَعْثٍ ذَكَرَهُ لِلنَّاسِ، أَوْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ بِغَيْرِ ذَلِكَ أَمَرَهُمْ بِهَا، وَكَانَ يَقُولُ: **"تَصَدَّقُوا تَصَدَّقُوا تَصَدَّقُوا** ". وَكَانَ أَكْثَرَ مَنْ يَتَصَدَّقُ النِّسَاءُ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى كَانَ مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ فَخَرَجْتُ مُخَاصِراً مَرْوَانَ حَتَّى أَتَيْنَا الْمُصَلَّى فَإِذَا كَثِيرُ بْنُ الصَّلْتِ قَدْ بَنَى مِنْبَراً مِنْ طِينٍ وَلَبِنٍ فَإِذَا مَرْوَانُ يُنَازِعُنِى يَدَهُ كَأَنَّهُ يَجُرُّنِي نَحْوَ الْمِنْبَرِ وَأَنَا أَجُرُّهُ نَحْوَ الصَّلاَةِ فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ مِنْهُ قُلْتُ أَيْنَ الاِبْتِدَاءُ بِالصَّلاَةِ؟ فَقَالَ لاَ يَا أَبَا سَعِيدٍ قَدْ تُرِكَ مَا تَعْلَمُ. قُلْتُ كَلاَّ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَأْتُونَ بِخَيْرٍ مِمَّا أَعْلَمُ، ثَلاَثَ مِرَاتٍ ثُمَّ انْصَرَفَ. وتحدثَ النبي(ε) عن المنبر قائلاً: **" مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ وَمِنْبَرِي عَلَى حَوْضِي "**[1]. وعنه قال سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ ابْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عن أَبِي حَازِمٍ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِقْسَمٍ أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ يَحْكِي عن رَسُولَ اللَّهِ (ε) أنه قَالَ: **" يَأْخُذُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ سَمَوَاتِهِ وَأَرَاضِيهِ بِيَدَيْهِ فَيَقُولُ أَنَا اللَّهُ -وَيَقْبِضُ أَصَابِعَهُ وَيَبْسُطُهَا- أَنَا الْمَلِكُ "** حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى الْمِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَىْءٍ مِنْهُ حَتَّى إِنِّى لأَقُولُ أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللَّهِ (ε)!. ومن خلال كل هذا كانت قيمة المنبر عند المسلمين كبيرةً، وقد أصبح الارتباطُ به ارتباطاً عقدياً لأنه مكان القداسة ومنبع العلم ومدعاة الخشوع. بل وهو صِنوٌ لصلاة الجمعة التي هي

---

[1] أخرجه البخاري ومسلم عن حديث يحيى بن يحيى رضي اللهُ عنهما.

[2] أخرجه البخاري عن حديث عبيد الله بن عمر القواريري وأبي كامل ومحمد بن عبد الملك الأموي عن أبي عوانة عن عبد الملك بن عمير عن المنذر بن جرير عن أبيه رضي اللهُ عنهم.

[1] أخرجه البخاري ومسلم عن حديث زهير بن حرب ومحمد بن المثنى الذين أخرجاه عن يحيى بن سعيد عن عبيد الله عن ابن نمير عن عبيد الله بن خُبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة رضي اللهُ عنهم.

واجبٌ على كل مسلمٍ بالغ. وقد حذر النبي عن الغفلة من هذا الواجب بما جاء في حديث أبي هُرَيْرَةَ τ حين قال: سَمِعَتُ رَسُولَ اللَّهِ (ε) يَقُولُ عَلَى أَعْوَادِ مِنْبَرِهِ **"لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ"** [1]. هذا ما كان عن تاريخ وأهمية المنبر، أما سببُ تسميته بالمنبر فقد جاء من طبيعة تكوينه، لأنَّ العرب تقولُ منبراً للمكان المرتفع، حيثُ إنَّ العبارةَ قد أُخذت من الفعل الثلاثي (نَبَرَ) وهي تعني ارتَفَعَ. وهي كلمةٌ قِيلَ إنها دخلت اللغةَ العربية من اللغة الحبشية. حيثُ يستخدمُ الأحباش كلمة (وَنْبَرْ) للدلالة على الكُرسي وهي شبيهةٌ جداً بكلمة (بَمْبَرْ) التي يستخدمها السودانيون للدلالة على الكرسي القصير الذي يُنسج من الحبال المصنوعة من سعف النخيل. وقال ابنُ منظور: "كل شيءٍ رَفَعَ شيئاً فقد نبَرَهُ، والنَبْرُ هو المصدر" [2]. وقد أُخِذَ هذا المعنى لمنبر المسجد الذي هو مِرقاةُ الخطيب التي توضعُ في مقدمة المسجد بالقرب من المحراب ليصعد عليها المتحدث ويُلقي الخطبة من فوقها. وهو دائماً على الجانب الأيمن للإمام وهو يستقبلُ القبلةَ في المحراب [3] .

السمات المميزة للمنبر

تميَّز المنبر ببعض السمات التي ميزته عن بقية وسائل الاتصال، وتتلخص هذه السمات في:

1- ارتباط المنبر بالمسجد.

2- وجود التغذية الراجعة.

3- الدعوة للقيم الفاضلة وسمو الأخلاق.

وكان ارتباط المنبر بالمسجد هي أولى السمات التي جعلت منه وسيلة ذات خصوصية وقيمةٍ أكبر مما قد يتبادر عند الحديث عن وسائل الاتصال. وذلك أن هذه الخاصية قد أثمرت عبر التاريخ في جعل المسجد نفسه مؤسسة تعليميةً وإعلاميةً ذات بُعدٍ خاص. وقد أشـرنا آنفاً لهذا الدور إبان فترة النبوة وما واكبها من تطورات. ولكننا نود أن نشـير إلى دور معاصـر شـهدت به صـحائف التاريخ للمنبر والمسـجد وهو دور الأزهر الشـريف في مصـر. ولعل اختيارنا له دون بقية المسـاجد لم يكن إلا على سـبيل المثال وليس الحصـر أو القصـر. حيث أصـبح منبر الجامع الأزهر منارةً للعلم والإعلام منذُ أن فكَّر يعقوب ابن كلسـن في جعل الجامع الأزهر معهداً للدراسـات المنظمة المسـتقرة. وكان يعقوب بن كلسـن قد اسـتأذنَ الخليفةَ العزيز سنة 378 هجرية (988م) في أن يحوّل منبر الأزهر إلى مدرسة مستديمة وذلك بأن يُعيّنَ جماعةً من الفقهاء للقراءة والتدريس في داخله. وقد تم له ما أراد حيثُ عيَّن سـبعةً وثلاثين أسـتاذاً وضـعَ لهم العزيز رَواتِبَ شـهرية، وأنشـأ لهم دُوراً

---

[1] أخرجه مسلم عن حديث الْحَسَنُ بن علي الحلواني عن أبي توبة عن معاوية بن سلام عن أخيه يزيد بن سلام عن الحكم بن ميناء عن عبد الله بن عمر رضي اللهُ عنهم.

[2] خير الأسماء شافعي: دور المسجد في بناء الحضارة الإسلامية، دراسة بحثية غير منشورة، (2000م)، ص 7.

[3] أنظر ابن منظور، لسان العرب، باب نَبَرَ.

للسكن بجوار الأزهر حيثُ اعتُبِروا أولَ هيئةٍ علميةٍ رسمية عينت للتدريس بهذا المسجد الجامع [1]. ووصفَ أحدُ عُلماء الرومان هذا الدور العظيم والمتجدد للأزهر بقولـــه: " إنَّ في مبادئ الإسلام وتعاليمه ما يبتغيه العالَمُ من إصلاحٍ في دينِهِ ودُنياه "[2]. ولم يتحدث هذا العالِمُ الغربي إلا عن الأزهر لأنه قد عايشَ تجربته بنفسه فوصفها هذا الوصف، ولكنه بالطبع يمكن أنْ يقول نفس الشيء أو أكثر منه عن بقية المساجد الجامعة في العالم إذا عايشها لاسيما التاريخية منها مثل جامع المستنصرية ببغداد، والجامع الأموي في دِمشق، وجامع الزيتونة في المغرب، وجامع قُرطُبة في إسبانيا، والمسجد النبوي في المدينة المنورة، ومسجد أيا صوفيا أو مسجد السلطان أحمد في إسطمبول بتركيا وغيرها. لقد ظلت كلُّ هذه المساجد منارات للعلم والإعلام. ومن خلالها تخطَّى المنبر دوره المتعارف عليه وانفتح على كل أشكال الخدمات الإعلامية والتعليمية ومنها الدروسُ العلمية، والخطب السِّياسية، والوصايا الفكرية، وطرح الأمور للنقاش وغيرها. وقد اعتمدَ بعضُ القادة السياسيين على استخدام المنبر لمخاطبة شعوبهم، خصوصاً في البلاد التي يمثِّل فيها المسجد أداةً أقرب وأسهل للوصول إلى القطاعات المختلفة من جمهور الدولة. وأدركَ التربويون أيضاً دور المنبر كوسيلةٍ ناجعة للوصول إلى المتعلمين، فصنعوا منه مؤسسةً يوميةً لبث المعلومات وتغيير المفاهيم الشائهة في أذهان الشباب. والكلُّ في ذلك قد تأسى بالنبي(ε) عندما بدأ بنفسه بتحوير المنبر إلى وسيلة إعلامٍ عقدية وسياسية تهتم بكل شئون الدولة في أوقات السلم والحرب ، وتطرحُ قضايا الدعوة والتصالح بين القبائل ، وتبثُ الأحكام الجديدة على رعايا الدولة سواءٌ كانوا مسلمين أو أهل ذمة. كما أسهم في طرح النقاش وتداول الآراء في معظم الأمور التي اقتضت طرح الشورى بين المسلمين. ثم كانت سياسات الدولة، وتطور التشريع، وبث الأخبار الجديدة، وخلق الدعاية، والنفرة للقتال، والوصايا المتعلقة بمستقبل الأمة، وغير ذلك من أمور الدنيا والآخرة التي أسهم المنبر في تحليلها والوصول فيها إلى قناعاتٍ راسخة من خلال الإعلام عنها وبثها بين المتلقين [1]. نشأ المنبر على أساس استخدام أساليب التربية التي مارسها النبي (ε) وأمر بها المسلمين حتى يكون لهم شأنٌ مغايرٌ للنصارى واليهود في بناء حضارتهم على أسسٍ راسخة وقواعد مميزة. وقد لخص أحدُ الباحثين[1] هذه الأسس في النقاط التالية:

1- مخاطبة الناس على قدر عقولهم.

2- التدرج في التعليم بشُعبتيهِ الكمية والكيفية.

3- رعاية الفروق الفردية والبيئية والنوعية.

---

[1] عبد العزيز محمد اللميم: رسالة المسجد في الإسلام، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1991م ، ص 246.

[2] الشيخ طوالبي: المساجد في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، 1988م، ص 475.

[1] المصدر السابق .

[1] عبد الله قاسم الوشلي، المسجد ودوره التعليمي عبر العصور من خلال الحلقات العلمية، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت،1988م، ص 29.

4- استخدام الوسائل المُعِينَة على التوضيح.

5- تَخَيُّر أحسنِ الأساليبِ وأرفقها بعقل المتلقي وقلبِه وسمعِه وبصرِه.

6- استخدام الطريقة الاستنباطية لاستخراج الحقيقة العلمية المنشودة.

وبناءاً على ذلك فقد نشأ المنبر على أساسِ تهذيب السِّلوك وتحسين الأخلاق. وهو مِصداقٌ لحديث النبي (ε) "إنما بُعثتُ لأُتمم مكارم الأخلاق". والسلوك والأخلاق هما الرُكنان الأساسيان لرسالة المنبر؛ ولا شك أنَّ مفهوم الأخلاق في الإسلام مفهومٌ مِحْوَرِي نشأ مع النفس البشرية؛ ولذلك جاءت مادة الأخلاق من مصدر الفعل الثلاثي خَلَقَ، كما ارتبطت بخَلْقِ الإنسان وعلاقته بالخالق جلَّ وعلا. وهي في ذلك أعمقُ من مفهوم الأخلاق في الفلسفة الإغريقية التي نبعت من خلال تقسيم اليونانيين للعالم الفلسفي إلى ثلاثة أقسام وُضِعَتْ في مؤخرتها الأخلاق التي رمزوا لها بعبارة "Ethos" التي تحورت فيما بعد إلى "Ethics"[2]. وما يهمنا في هذا الربط هو تلازم فكرة الأخلاق منذ البداية مع التواصل والاتصال. فالبلاغة عند أرسطو تتمحور حول ركيزةٍ أساسية هي الاتصال "Communication". وهي في تعريفه إنما تعني الوصول إلى كل السبل والوسائل المُفضية إلى الإقناع. وأهم ما وصل إليه أرسطو في هذا السياق هو اعتقادُه بأنَّ الإمساك بناصية السياسة والأخلاق يعتمد على تحقيق الاتصال الناجح بالجماهير، أي امتلاك القدرة على الإقناع من خلال المنطق والحجة [1]، وهي الأدوات التي ركزنا عليها في اعتبار المنبر وسيلةً اتصالية. وحتى في مفهوم المدينة عند الإغريق كان الكلام والفكر هما العنصران الأساسيان للوجود الفاعل للفرد في المجتمع. ومع نمو المدينة بمفهومها الإغريقي نمت مكانة فن الكلام والخطابة. وازدهر المسرح والأدب وفقاً لذلك عندما ظهر الموقع القيادي للخطيب في مجتمعه. وحتى السفسطائيين "Sophists" الذين برزوا في أخريات القرن الخامس قبل الميلاد اعتمدوا على فن الخطابة الذي أبرزوا من خلاله براعَتَهم في المعرفة، ومارسوا من خلاله كُل أشكالِ الاتصال بالعامة والخاصة من جمهور المدينة. وعندئذٍ اتجهوا نحو تعليم أبناء المدن أساسيات الكلام من منطق وقواعد وتصريف وأساليب استدلال وطرائق استنباط وغيرها من المعارف التي تاقَ الناسُ لمعرفتها لتنقلهم من ربقة العوام إلى مصاف العارفين. وأصبح المعلمون هم قادةُ الفكر السفسطائي وعلى رأسهم أنتيقون، وبروتاغوراس وجورجياس. وظهر تأثيرهم فيما بعد في التعاليم السياسية التي قلَّبت الموازين في المدن الإغريقية. إذن فإنَّ الإطار الخطابي الذي قام على أساس الاتصال الشفاهي كان ذا فعاليةٍ وبريقٍ لا يُدانيه بريق في المجتمعات التي واكبت أو سبقت اتخاذ المنبر وسيلةً للاتصال. وعندما اتخذها الإسلام وسيلةً أسمى لنقل الرسالة وجدت كثيراً من مقومات الرقي والقبول في البيئة الإسلامية. وقد أشار إلى ذلك الإمام محمد أبوزهرة عندما قال في كتابه عن

---

[2] Awad I, Awad, Communication Law and Ethics, Univision, Kuala Lumpur 1999.

[1] المرجع السابق ،ص49.

الخطابة الذي أصدرته دار الفكر العربي: " وَجَدَت الخطابةُ في البيئةِ الإسلاميةِ عواملَ رُقيٍ، وأسبابَ تقدمٍ ونمو، فقد كانت حياةُ العربي خِصبةً بالتقوى والإيثار وقُوةِ الروح؛ حيثُ أحسَّ بأنَّ مُلْكَ كِسْرَى يتزلزل تحت سيفه، وقيصر ينكمش فراراً من قوته. وذلك للدين الذي تَوَرَّدَ على قلبه. فإنه هو الذي أوجد تلك القوة التي تُدكدكُ العروش، وتُزلزلُ القلوب، وتجعلُ من ساكن الصحراء حاكماً لفارس ومُلْكِ الرُومِ في الشرق " [1]. ولما كانت القيمةُ الحقيقية لرسالة المنبر تعتمدُ على إدراك ما يقوله الخطيب ، فإنَّ المنبر بذلك يؤكِّد ما توصل إليه علماء الاتصال من أنَّ الإدراك هو أهم العمليات الذهنية ذات الصلة بسلوك الاتصال. حيثُ تشتمل عمليةُ الإدراك على مجموعةِ عملياتٍ فرعية ذات صلة وثيقة بالعقل والنفس البشرية، وينتج عن تسلسلها إدراكُ الفرد للحدث أو المؤثر الذي وقع على أحد حواسه. والمراحل التي وضعها علماء الاتصال لإكمال عملية الإدراك هي: 1/ مجابهة المؤثر 2/ التسجيل 3/ التفسير 4/ الارتداد 5/ التصرف 6/ الآثار. وعملية التصرف لا تكتمل إلا بما ينتج من رد فعل سلوكي، حيث يقوم الفرد بالتصرف حسبما يقتضيه تفسيرُه للمؤثر. ولذلك كان الخشوعُ الذي أمر اللهُ به عباده على لسان النبي (ε) أثناء الخطبة، وهو خشوعٌ مقصودٌ لذاته، لأنه يحقق أدب التلقي المفضي إلى فتح قنوات التعلُّم وشحذ الذهن لتفسير الرّسالة بشكلٍ أوضح. وفضلاً عن هذا فإنَّ اتصال الرسالة المنبرية بإقامةِ الصلاةِ جعلَ منها رسالةً متفردة تستدعي التجردَ لتلقيها دون الوساوسِ التي تشغلُ بال المتلقين والتي لا تنجو منها وسائلُ الاتصال الأخرى،مما جعل هارولد لاسويل"Harold Lasswell" يؤكِّد أنه لا توجد رسالة بلا تشويش[1]. وقد اجتهدَ علماءُ الاتصال وفقاً لزعم هارولد لاسويل لاستنباط أنجع الأساليب لجعل المتلقي يقظاً طوال ساعات البث الإعلامي لكي تُحقِّق الرسالةُ الاتصالية أهدافَها. ولذلك كان المنبر سابقاً لأدوات الاتصال الأخرى عندما أمر النبي (ε) روادَ المساجد بالخشوع التام وعدم الانشغال بأي غرضٍ دنيوي أو أخروي غير متابعة الخطبة وقَدْحِ الذهن للتلقي. ومن هنا سرى الإحساسُ بقدسية رسالة المنبر وكأنها جزءٌ من أركان الصلاة، وهي كذلك دون أدنى ريب. حيثُ إنَّ التجرد للتلقي الذي يحدث أثناء تقديم الخطبة المنبرية لا يحدث لأي وسيلةٍ من وسائل الاتصال الأخرى بحكم أنَّ الشارع قد اشترط التأدُب أثناءها وحرَّم التلفظَ بأبسط الكلمات حتى لا ينشغلَ الإنسانُ عنها ولا يشغل بقية السامعين. وقد أشار الحديثُ الشريف إلى ذلك الأمر بشكلٍ واضح حيثُ قال أبو هُرَيْرَةَ τ، قال رَسُولُ اللَّهِ (ε) **"إِذَا قُلْتَ لصاحبك أنصت يوم الجمعة والإمام يخطب فقد لغوت "** وزاد في رواية أخرى:" **ومِنْ لغا فلا جمعةَ له"**[2]وقال النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ: كُنْتُ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ (ε) فَقَالَ رَجُلٌ مَا أُبَالِي أَنْ لاَ أَعْمَلَ عَمَلاً بَعْدَ الإِسْلاَمِ إِلاَّ أَنْ أُسْقِيَ الْحَاجَّ. وَقَالَ آخَرُ مَا أُبَالِي أَنْ لاَ أَعْمَلَ عَمَلاً بَعْدَ الإِسْلاَمِ إِلاَّ أَنْ أَعْمُرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ. وَقَالَ آخَرُ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِمَّا قُلْتُمْ. فَزَجَرَهُمْ عُمَرُ بنُ الخطابِ وَقَالَ: لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللـــهِ

---

[1] أنظر محمد أبو زهرة: الخطابة أصولها تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، دار الفكر العربي، القاهرة 1934م، ص 15-38 .

[1] Marshal Mcluhan, The Medium is the Message, New York, Pantam1967.

(2) أخرجه الشيخان من حديث ابن رمح عن عقيل عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن ابي هريرة رضي الله عنهم.

(ε) وَلَكِنْ إِذَا صَـلَّيْتُ الْجُمُعَةَ دَخَلْتُ فَاسْـتَفْتَيْتُهُ فِيمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ [أَجَعَلْتُمْ سِـقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْـجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ] "سورة التوبة الآيــة: 19" [1]. ولم يقتصر تأدب الصحابة في سماع الخطبة على رواد المسـجد بل تخطاه إلى المسـتمعين خارج المسـجد. حيثُ كانوا يلتزمون بأدب التلقي والمتابعة عندما يسـتمعون للخطبة. فقد جاء على لسان أبي بَكْرِ بْنُ نَافِعٍ قولُهُ: حَدَّثَنَا أَفْلَحُ بْنُ سَعِيدٍ عن عَبْد اللَّهِ بْن رَافِعٍ قَالَ: كَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ تُحَدِّثُ أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِي (ε) يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ وَهِيَ تَمْتَشِطُ " أَيُّهَا النَّاسُ "، فَقَالَتْ لِمَاشِطَتِهَا كُفِّي رَأْسِي.

[1] رواهُ البخاري ومسلم عن حديث حسن بن علي الحلواني عن أبي توبة عن معاوية بن سلام عن يزيد بن سلام عن أبيه رضي اللهُ عنهم.

وإذا كان ذلك أدب المتلقي "Listener" لرسالة المنبر فإنَّ أدبَ المُرْسِلْ "Sender" أكثرُ تهذيباً ودقةً حتى تتسق الرسالة مع المراد منها وتؤدي أغراضها، حيثُ لم يشترط الشارع فقط صحة الخطبة ودقتها واهتمامها بقضية الإنسان، وإنما فرض حتى على المتحدث سلوكاً معيناً وهنداماً جميلاً يتسق مع مقام الرسالة. حيثُ كان النبي (ε) يلبسُ لها رداءاً خاصاً يليق بهيبتها كما جاء في حديث جَعْفَرَ بْنَ عَمْرِو بْنِ حُرَيْثٍ عَنْ أَبِيهِ حين قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (ε) عَلَى الْمِنْبَرِ وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ سَوْدَاءُ قَدْ أَرْخَى طَرَفَيْهَا بَيْنَ كَتِفَيْهِ.[2] وتحدثَ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ عن حتمية الاعتدال والاستقامة والانضباط على المنبر على خلاف مواقع الخطابة العادية، فوصف خشوع الجوارح وعدم التلاعب بالأيدي أو الأقدام أو ما سواها وكَأَنَّ الإنسانَ في حضرة الصلاة. والنموذج الأرفعُ لهذا الأدب على المنبر هو نموذج النبي (ε) الذي وصفه إبنُ أبي شيبة بقوله: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ إِدْرِيسَ عَنْ حُصَيْنٍ عَنْ عُمَارَةَ بْنِ رُوَيْبَةَ قَالَ رَأَى بِشْرَ بْنَ مَرْوَانَ عَلَى الْمِنْبَرِ رَافِعاً يَدَيْهِ فَقَالَ قَبَّحَ اللَّهُ هَاتَيْنِ الْيَدَيْنِ لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ε) مَا يَزِيدُ عَلَى أَنْ يَقُول بِيَدِهِ هَكَذَا، وَأَشَارَ بِإِصْبَعِهِ الْمُسَبِّحَةِ [1]. كما كان النبي (ε) يحرص على تخصيص المنبر ببعض سور القرآن الكريم وذلك مما جاء في حديث عمرة بنت عبد الرحمن عندما تحدثت عن سلوكه (ε)عند صعود المنبر في أيام الجمعة، فقالت عن أُخْتٍ لها: أَخَذْتُ سورة ق [ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ] مِنْ فَمِ رَسُولِ اللَّهِ (ε) يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَهُوَ يَقْرَأُ بِهَا عَلَى الْمِنْبَرِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ [2] . لعلَّ هذا التخصيص، والأدب السُّلوكي في تقديم خطبة المنبر، واجتهادُ المتلقي في تصفية ذهنه لتلقيها يؤكِّدُ مكانة المنبر في الإسلام، كما أنَّ هذا الطرح يَتقاربُ مع رؤية مدرسة علم النفس المعرفي للاتصال الذي تقومُ واحدةٌ من أهمِّ مُسلَّماتِهِ الأساسية على أنَّ الإنسان إنما يتلقى المعلومات الحسية ويستجيب لها اعتماداً على قيمة هذه المعلومات وقناعته بأهميتها. ويتأتى ذلك من خلال مجموعةٍ من العمليات الذهنية الداخلية المساعدة في فهم المعلومات واستيعابها كالإدراك، والتخيُّل، والاتجاهات، والقيم، وتصفية الذهن للتلقي. ومن ذلك جاء أدب الإنصات كواحد من مقومات السلوك في التلقي عن المنبر لكي يتعلم الإنسان ذلك العلم الذي كرَّمَهُ اللهُ (I) بقوله: [يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ] [3] . ثم زاده تكريماً عندما حثَّ الإنسانَ على الاستزادةِ منه بقوله تعالى : [وقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً] [4] .

النقد الموجه للمنبر

لقد انتقد البعضُ المنبر بأنّه وسيلةٌ غير مستديمة بحكم أنه يُستخدمُ في أوقاتٍ معينة محدودة بالزمان والمكان. ولذلك لا يمكن اعتباره وسيلة اتصالٍ جماهيرية. وفي هذا الإطار لا بدَّ من التأكيدِ على أنَّ وسائل الاتصال الجماهيرية ليست

[2] رواه أبو بكر بنُ أبي شيبة والحسن الحلواني عن أبي أُسامة عن مساور الوراق رضي اللهُ عنهم.

بالضـرورة أن تكون ذات اسـتمرارية أو ديمومة يومية حتى يتم وصـفها بالجماهيرية. وأقربُ مثالٍ على ذلك "المجلة" التي لا تَصـدرُ إلا في أوقاتٍ مُتباعدة ومحددة بحكم أنها وسـيلة دورية. وإذا أصـبحت يوميةً فإنها تفقد أُولَى خصـائِصِـها التي وضعها لها علماء الاتصال كمطبوعة دورية. وكذلك الكتاب لا يمكنُ أن يصدرَ بشكلٍ يومي. حيثُ تمرُ شهورٌ أو أعوامٌ دون صـدور أي كتاب، ثم تصـدرُ منه مجموعاتٌ مختلفة في أوقاتٍ مختلفة وبقاعٍ مختلفة من العالم. وقد لا تأتي الطبعاتُ اللاحقة لنفس الكتاب إلا بعد أعوامٍ وأعوام. وكل هذا لا يقدح في كونه أو المجلة وسـيلة اتصـالٍ جماهيرية. ولذلك فالمنبر كوسـيلة اتصـال لا يُشترطُ فيه أنْ يكونَ خِدمةً يوميةً أو مستمرة كالراديو أو التلفزيون. ورغم هذا الأمر إلا أنَّ المنبر قد نال خاصية الديمومة والاستمرارية في كثيرٍ من الأحيان عندما أراد له بعضُ قادة المسلمين أن يكون كذلك في بعضِ الحِقَب. صحيحٌ أن نظامَ نشأته الثابت بالنصوص الشرعية جعل منه وسيلةً إعلاميةً أسبوعيةً تَبُثُ مادتها في كل يومِ جمعة قُبَيْلَ صلاةِ الظهر. ولكنَّ هذا لا يمنع من اسـتخدامه بشـكلٍ يومي لتقديم الخطب والدروس الدينية أو العلمية أو الفكرية مثلما هو الحال في كثيرٍ من المساجد المنتشرة في أنحاء العالم. حيثُ إنَّ وظائف المسجد العديدة التي أشرنا إليها آنفاً لا تنقضي، ويمكن أن نُضيف إليها تحقيق الأمن والطمأنينة في المجتمع، والتي كلما اختلت هرِعَ الناسُ للمسـجد طالبين الأمنَ والأمان فيكونُ المنبرُ حاضـراً لتقديمِ الحلول[1]. وكانت نتيجة هذا الدور الأمني والتثقيفي للمنبر طوالَ عصـور الحضـارة الإسـلامية أنْ أفرزت جيلاً لا يزال معجزة العالم ومفخرته في كل مجالات العلوم الشـرعية والكونية والإنسـانية مثل يحيى بن الحارث الذماري، وحمزة بن حبيب الزيات، ومالك بن أنس، والبخاري، ومُسلم، وأبو داؤد، والنسائي ، والترمذي ، وابن ماجة ، وابن جريج، والسـدي ، ومُقاتل، وابن جرير الطبري، وغيرهم من المفسـرين والمعلمين والأطباء، والمهندسـين[1]. وما تزال جامعاتُ العالم تعتبرُ عطاء هؤلاء النفر الذين تعلموا أبجدياتِ العلم من وسـيلة المنبر ثَروةً عِلمية في مختلف ميادين الحياة ومراجِعَ أساسـية في العلوم والأبحاث والمخترعات. وإذا لم تكن هذه الجامعاتُ تُشـير إلى دور المنبر في تخريج هؤلاء العلماء فإننا نريدُ أن نشيرَ إليه ونعتمدَ عليه في سياقِ ما نحنُ بِصَدَدِهِ. لقد بدأت طبيعةُ الرسالة المنبرية شفهيةً، ثم تطورت عبر التاريخ إلى عنصـر الكتابة لحفظ الخطب بعد إلقائها. والبثُ الشـفهي لرسـالة المنبر أمرٌ مهمٌ في سـياق هذا البحث لأنه أثارَ قضـيةً جدليةً أدلى فيها عددٌ من الاتصـاليين بآرائهم عبر العصـور. ولتعميم الفائدة نأخذ رأياً واحداً ونضـع من خلاله موقف المنبر عبر التاريخ. فقد قال عُلماءُ الاتصال إنَّ للحفظ الشفهي عيوباً تتمثلُ في شيئين هُما:

---

[1] أخرجه البخاري عن حديث ابن أبي شيبة عن عبد الله بن إدريس عن حصين عن عمارة بن رؤيبة عن بشر بن مروان رضي الله عنهم.

[2] أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي عن يحيى بن حسان عن سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد رضي اللهُ عنهم.

(3) سورة المجادلة الآية 11

(4) سورة طه الآية: 114

[1] علي عبد الحليم محمود، المسجد وأثره في المجتمع الإسلامي، دار المعارف المصرية، القاهرة، 1988م، ص 32.

[1] الوشلي، مرجع سابق، ص 68.

1- إنَّ نقلَ المعلومات شفهياً يجعلُ المتلقين يقبلون بالكلامِ المنقول شفهياً باعتباره واقعاً وحقيقةً دون أن يمتلكوا القدرة على مناقضته أو الشك في حقيقته، وذلك لأنَّ المتلقين لا يملكون مُقوماتِ التقويم كالقياس والمقارنة والمفاضلة[2].

2- إنَّ غياب القُدرة على المقارنة والمفاضلة أدى إلى بروز المجتمعات الأُحادية "Monolithic Societies" ذات الرأي الواحد، والتي لا مكان فيها لتعدُّد الآراء. وفي مثل هذه المجتمعات أصبحت التقاليد والمعتقدات والقيم والآراء التي يتخذها الزعماء أمراً لا بد من اتباعِه، والالتزامِ الصارمِ به، والحرصِ على عدم الحيدةِ عنه [1]. وفي ردنا على هذينِ الادِّعائينِ نقول إنَّ لدينا تحفظاً على سياقِهما، ولكن رغم هذا التحفظ نؤكِّدُ أنَّ المنبر لا تنطبقُ عليه هذه العيوب المُدَّعاة، وذلك لأنَّ رسالتَه ليس المقصود بها ترسيخ فكرةٍ واحدة أو قضية مُحددة وإنما هي رسالةٌ متغيرة بتغير الزمان والمكان، ومتجدِّدة بتجدُّد الأحداث، وهي وعاءٌ تربويٌ إعلامي يعمل بشكلٍ مستمر على خلق التغيير الاجتماعي والسُّلوكي بما يُفضي إلى تبديلِ حالِ المجتمعِ كُلِّهِ إلى الأفضل. وفي ذلك فهو أشبه بمحطة الإرسال التلفزيوني التي لا تسعى إلى تلقين المعلومات وإنما تجتهد لخلق التأثير المطلوب في المتلقين بمواءمة الحديث مع رغبات المتلقين وتوظيف التعليق لتلبية حاجات الجماعة البشرية.

ثم إنَّ المشافهة قد كانت وسيلةَ الاتصال الوحيدة التي عرفتها المجتمعات الأولى. وكان الحفظ في الذاكرة الإنسانية هو الوسيلة المناسبة وفقاً لذلك لتخزين الإرث الثقافي ونقل المعارف والعلوم في المجتمعات البدائية التي ساد فيها ذلك الأسلوبُ المُمَيَّزُ للاتصال. ومن خلاله تولَّد مفهوم العرف وقيمته الرسالية في المجتمعات. حيث ساد الإحساس بأهمية الموروثات والعادات والتقاليد رغم أنها تعتمد على سلوك المشافهة والتكرار وليس فيها شيءٌ مكتوب. وأقرب مثالٍ لذلك الدستور البريطاني الذي هو تكاملُ مَوروثاتٍ شفاهية غير مكتوبة. وقد أصبحَ أمراً مُقدساً لدى الإنجليز الذين لم يعرفوا قانوناً مكتوباً في تاريخهم وإنما اعتمدوا على أسلوب السوابق القضائية الذي هو ترسيخٌ لثقافةِ المشافهة وتوارثوه أباً عن جد ولم يرضوا به بديلاً. وإذا تجاوزنا أساليب المشافهة المشار إليها فإننا لا بد أن نعترف بأنَّ مرحلة الاتصال الشفاهي قد تميزت بعدد من الخصائص الإيجابية ومنها:

أولاً: كانت الكلمةُ الشفهية ذاتَ أثرٍ بليغ في جمهور المتلقين. حيث كان للحديث المباشر فعلُ السحر في إقناع الناس وكسب تعاطفهم وانحيازهم إلى جانب المتحدث.

ثانياً: أفرزَ الاتصالُ الشفاهي أمراً في غاية الأهمية وهو القيادة الاجتماعية في المجتمعات القديمة. حيثُ تركزت هذه القيادة في أيدي الخطباء المفوهين الذين تميزوا بالفصاحة وطلاقة اللسان والذاكرة اللماحة وسُرعة البديهة. ولم يكن ذلك الأمر وقفاً على خطباء المسلمين وإنما مارسه أيضاً قدماءُ الرومان وخطباءُ الإغريق الذين نالوا به مَكانةً

---

[2] قلندر، مرجع سابق، ص 84.

[1] نفس المرجع، ص 85.

مرموقةً في المجتمعات القديمة. حيثُ كانت البلاغةُ والفصاحةُ من المتطلبات الرئيسية لمن يريدُ الزعامةَ والقيادةَ في مجتمعه. وكل هذه أدواتٌ اتصاليةٌ لعبتْ دوراً في تركيز سِمَاتِ الاتصال الشفاهي القائم على قواعد الاتصال الثنائي، ومن ثم لعبت دوراً في قنوات الاتصـال الجماهيري عندما وظَّفَها أصـحابُها من خلال الخُطب والقصـائد الشـعرية والسَجع وغيرها من وسائل التعبير التي أصبحت فيما بعد أدواتِ المنبر الرئيسية في حمل رسالته إلى الجمهور.

ونسبةً لأنَّ المجتمعات البدائية قد كانت مجتمعاتٍ شفهية فقد قصرت المسافة الوجدانية بين أفراد المجتمع، ونتج عن ذلك التقاربِ التفافُ المجتمع حول المركز الذي يمتلك المعلومات ويبتدر الاتصال بين الناس. ولذلك أصبحت الجماعةُ تحت ظل الاتصـال الشـفهي شـديدةَ التماسـك والتقارب، وشـديدةَ الولاءِ لبعضِـها البعض. ولم ينتهِ هذا الدورُ بنهاية المجتمعات الكلاسيكية، وإنما استمر مع البشرية إلى يومنا هذا. ولذلك استخدمه جميعُ الأدباء والفنانين والقادة السياسيين. وما الحفلات الغنائية والعروض المسـرحية والليالي الشـعرية والندوات الثقافية التي تملأ المسـارح والقاعات والسـاحات العامة اليوم إلا انعكاس لرغبة الناس في التلقي الشفاهي وتأثرهم به.

بل وإنَّ الزعماء والقادة السياسيين قد تعودوا أن يصلوا إلى جماهيرهم في كل مكان بغرض الاتصال المباشر معهم للتخاطب والتفاكر في لقاءاتٍ مفتوحة. وأقرب دليلٍ على ذلك ما يفعله مُرَشـحو الرئاسـة الأميركيون في مواسـم الانتخابات حيثُ يطوفون بجميع الولايات كجزءٍ من حملاتهم الانتخابية لا لشـيء إلا لتأثير مثل هذه اللقاءات المباشـرة على الناخبين وعلى كل من يسـتمع إليهم. وما هذه اللقاءات إلا تقديمٌ لمعلوماتٍ شـفاهية تُبثُ إلى أُذن المتلقي مباشـرةً دون وسـيط، ومنها يتلقى الزعماءُ ردود الفعل من جمهورهم دون وسيط، وهذا هو ما يفعله المنبر بالضبط.

ومن الانتقادات التي وُجِّهَتْ للمنبر أيضاً أنه وسيلةٌ لا تُرسل لجمهور غيرِ المسلمين. وهذا زعمٌ باطلٌ جملةً وتفصيلاً بدليل أنَّ خُطبةَ الجمعة وغيرها من خُطبِ المساجد ظلت مفتوحةً لجميع البشر بمجرد أن يُلقيها المتحدث. ولم يحدث لمسجدٍ من المساجد أن حرمَ مستمعاً أو متلقياً من الإنصات لحديثِ الإمام أو متابعته سواءٌ كان هذا المستمع مسلماً أو غير ذلك. وإذا كان غير المسلمين لا يأتون للمساجد عادةً فإنَّ الخطبةَ لم تَعُدْ قصراً على رواد المساجد وإنما وصلت إلى كل أصقاع الدنيا بعد أن تمَّ نقلُها بواسطة الأقمار الصناعية والفضائيات والإذاعات والتلفزيونات ووسائل التسجيل الحديثة وغيرها. وأصبحَ بمقدورِ أي إنسانٍ على وجه الأرض مهما كانت عقيدتُه أن يستمتعَ بخطبة المسجد كما يستمتع بأي مادةٍ ترفيهية تُبثُ عبر الأثير. كما أنَّ في مقدور كل إنسانٍ أن يرد على هذه الخطبة بما يشاء وأن ينتقدها بأي شكلٍ من أشكال الانتقاد عبر القنواتِ العديدة المتاحة للاتصـال. كما أنَّ الجميعَ سـواسـيةٌ في أن يعتبروا بخطبة المسـجد متى ما وجدوا فيها ما يروقُ لهم أو يُغيّر مفاهيمهم نحو الأفضل. وهذا يُثلجُ صدر الخطيب ورواد المسجد بلا شك متى ما عرفوا أنَّ هناك أناساً يتجاوبون مع الخطبة من غير المسـلمين. بل إنَّ بعض الأئمة والعلماء المسـلمين اهتموا بردود فعل النصـارى واليهود والماركسـيين أكثر من اهتمامهم بردود فعل المسـلمين. وعلى سـبيل المثال الإمام الباقلاني الذي ترك مسـجده وذهب للنصـارى في ديرهم عندما

أرادوا أن يُجادلوه في خطبةٍ ألقاها على المنبر ومست عقيدتهم. ثم بعد قرونٍ من ذلك خرج الشيخ أحمد ديدات من مسجده وتوجه لمناظرة القساوسة في عُقر دارهم بالولايات المتحدة مما أثرى حمية النقاش وجعل العالم كله ينتبه لعظمة الإسلام من خلال الحُجج والبراهين التي ساقها الشيخ ديدات والتي هزم فيها مناوئيه من النصارى شر هزيمة. ثم كانت محاورات الأستاذ الدكتور مصطفى محمود للأقباط الذين علقوا على آرائه في وضع الأجنة وخلق القرآن الكريم ومسألة الثالوث المقدس والتي كان قد طرحها في مسجده بالقاهرة. وولد ذلك النقاشُ حلقاتٍ عديدة من البرامج التلفزيونية التي طرح فيها الدكتور مصطفى محمود عدداً من الأمور الهامة، فماذا كانت النتيجة؟

أوردت صحيفةُ (المسلمون) في عام 1988م أنَّ عدداً من الأقباط قد أعلنوا إسلامهم أمام الشيخ محمد متولي الشعراوي بفضل ما سمعوه من خطبه المنبرية التي تركت فيهم أثراً بليغاً. ونفس الشيء أحدثته خطب الشيخ عبد الحميد كشك، وخُطبُ الدكتور مصطفى محمود، وخُطبُ الشيخ الحجيلان وغيرهم من أئمة المساجد المفوهين. وبنفس القدر أعلن عددٌ من الشباب في الولايات المتحدة الأميركية إسلامهم عندما تابعوا خُطب مالكولم إكس في الستينيات. وقد دخل بعضُهم في دين الإسلام من خلال ما سمعوه من الخطب المنبرية داخل السجون الأميركية المسماة Maximum Security "Jails" عندما أُتيحت فيها الفرصُ لإقامة بعض المساجد وتعميرها بالصلوات. وقد حكى أحدُ العلماءِ المسلمين للباحث[1] أنه قد ذهبَ إلى أحد هذه السجون في عام 1987م بغرض مقابلة بعضِ الأميركيين الذين اهتدوا للإسلام داخلها. وعندما قرر القيام بهذه الزيارة وفي بالِهِ قصة المناضل المسلم (مالكولم إكس) "Malcolm X" الذي اهتدى للإسلام في داخل هذه السجون بعد أن كان مشرداً وعِربيداً ويُتاجرُ في المخدرات وذهبَ لزيارة السجن المقام في قلعةٍ حصينةٍ بين فيلادلفيا ونيويورك. وقال في وصفه لجُدران السجن بأنها كانت شاهقةً وتُذكر بالمدن الأوربية في القرون الوسطى. ووقفَ خلفَ الأبواب الحديديةِ الضخمة للسجن عساكِرُ أقوياء لهم عضلاتٌ مفتولة وأجسادٌ ضخمة. وفي داخل السجن كانت الزنازين قد امتدت على مَدِّ البصر، والناسُ في داخلها يطرقون الأبوابَ بشدة، ويتصايحون بأعلى أصواتهم بحكم الضغط النفسي الشديد الذي يعيشونه داخل السجن. ثم بعد ذلك المشهد المرعب قيل لهم انزلوا درجات السلم لكي تصلوا إلى المسجد الذي هو في باطن الأرض. ونزلوا إلى باطن الأرض فإذا بجوٍ يختلف غاية الاختلاف. كان المسجد واسعاً، وجميلاً، وقد بُنِيَ على طرازٍ ممتاز وفُرشتْ أرضيتُهُ بأفخم السجاد. وفي داخله رأى أناساً في غاية الأدب والنظافة والأخلاق، يرتدون جلابيبهم الناصعةَ البياض وطواقيهم التي تُغطي معظم الرأس. وقد جلسوا في خشوعٍ شديد لتلاوة القرآن الكريم. ولم يصدق الأستاذ أنه داخل سجنٍ في أميركا، وقيل له إنَّ هذا المكان قد كان مُستنقعاً للمياه الراكدة في الماضي، ولما طالب المسلمون بإقامة مسجدٍ لهم بالسجن قيلَ لهم " إذا أردتم أن تُقيموا مسجداً فعليكم أن تُجففوا هذا المستنقع ثم تقوموا ببناء ما شئتم ". وكان ذلك الأمرُ على

---

[1] هذا العالم هو الأستاذ الدكتور مدثر عبد الرحيم الطيب، أستاذ العلوم السياسية، ومدير جامعة أم درمان الإسلامية الأسبق، والذي كتب العديد من المؤلفات والبحوث عن الإسلام والأقليات المسلمة باللغتين العربية والإنجليزية.

سبيل التعجيز والتحدي، ولكنَّ الشباب المسلمين عملوا أياماً وليالي بلا كللٍ حتى جففوه وبنوا عليه هذا المسجد البديع في هندسته وفي دوره التعليمي والدعوي للسجناء. وأثناء ذلك الحديث تقاطر المسلمون من أنحاء السجن المختلفة وبدأت خُطبة الجمعة التي أُقيمت بعدها الصلاة، ثمَّ أُعلن عن دخولِ عددٍ من المهتدين الجدد في الإسلام. وكان أكثر ما يلفتُ الانتباه هو إجادةُ بعضهم للغة العربية إجادةً تامة. والتفت الأستاذ المتحدث إلى أحدهم عندما رأى طلاقته الفائقة وفصاحته الشديدة في التحدث باللغة العربية وسأله عن السر في ذلك فردَّ بقوله: " إنني اتُهِمتُ في محاولة قتلِ أسرةٍ بأكملها، وحُكِم عليَّ بالسجن لمدة سبعين عاماً وكان عمري آنذاك ثماني عشرةَ سنة. وشعرتُ بأنني سأقضي العمر كله في هذا السجن، لأني لا أحسب أنني سأعيش أكثر من ذلك. وأثناء وجودي بالسجن اهتديتُ للإسلام، فقررتُ أن أتعلم اللغة العربية في هذا المكان الطاهر وقد كان".مثل هذه الرواية ومثيلاتها تؤكِّد عظمة المسجد ودور المنبر في تهذيب النفس البشرية وجعلها تخوض غمار المستحيل في هذا الزمان الصعب.

وسطية المنبر بين الاتصال والرسالة المدرسية:

وحتى لا يظنن أحدٌ أنَّ إصرارنا على اعتبار المنبر ضمن وسائل الاتصال الجماهيرية قد يجعل من المدرسة أيضاً وسيلةَ اتصالٍ جماهيرية بحكم التشابه بين المسجد والمدرسة فإننا نقولُ إنَّ هناك فرقاً كبيراً بين الوسيلة الإعلامية والوسيلة التعليمية رغم أنَّ التعليم هو أحد وظائف الاتصال الأساسية التي قسمها العلماء إلى ستة وظائف هي: "الإعلام ، والتعليم ، والترفيه ، والتنشئة الاجتماعية، والمراقبة ، والإقناع". ومن البديهي أنَّ دور المدرسة هو التعليم الذي يتم بأسلوبٍ متعارفٍ عليه في جميعِ المجتمعات البشرية. حيثُ يعتمدُ على تقديم الدروس في القاعات المُخصصة لذلك وفقاً لجداول محددة تتبنى المناهج التربوية المحددة بمواصفاتٍ معلومة لدى التلاميذ والجهات التربوية. ثم إنَّ المدرسة تُقدِّمُ دروسها لدارسين مُحددين بالاسم والحصر داخل الفصول التي يتم بعدها ما يُسمى بالتقويم الذي يتبع إحدى الوسائل المعروفة كالاختبارات والمسابقات والامتحانات النهائية وأساليب قياس القدرات والبحوث والسمنارات والعروض الحية لأفكار الدارسين "Presentation" وغيرها. أما الوسيلة الإعلامية فهي تنزع إلى العمومية في بث الرسالة التي لا تتقيد بمنهجٍ أكاديمي محدد، ولا بدارسين يضمهم إطارُ الفصل الدراسي. ورغم أنَّ جمهور الوسيلة الإعلامية قد يكون معروفاً في بعضِ الأحيان إلا أنَّ ذلك لا يجعل منه جمهوراً محدداً بالأسماء أو إطار الفصل الواحد كما في المؤسسات التعليمية.

وبالطبع فإنَّ الإعلام والتعليم يتفقان من حيثُ الهدف والغاية، حيثُ إنهما يسعيانِ دائماً إلى تغيير سلوك الفرد. وقد أشار إلى ذلك الأستاذ الدكتور محي الدين عبد الحليم في دراسته عن الإعلام الإسلامي، حيثُ قال: " إنَّ التعليم طريق إلى تكييف الحياة ليعيش المتعلم عيشةً أفضل، ويستمتع الإنسان في المجتمع بحياةٍ أرغد. ولذلك فالتعليم والإعلام يقومان بالتقريب بين مختلف أفرادِ الشعب، وقد كانت أجهزة الإعلام قديماً وحديثاً هي المدرسة التي تواصل عمل المدرسة التقليدية

فتقوم بتقريب الفروق بين الناس "[1]. وإذا نظرنا إلى المنبر بعد هذا التفصيل نجدُ أنه لا يلجأ للأساليب التي تلجأ إليها فصولُ الدراسة، وإنما يَنْقُلُ المعلوماتِ من المصدر إلى المتلقي دون إجراء اختباراتٍ، أو مُسابقاتٍ، أو اعتماد مناهج محددة، أو مراقبة سلوك المتلقين، أو إقامة أي سمنارات. وتكون الرسالة هي العلاقة الأساسية فيه بين المصدر والمتلقي. وهذا هو ما تقوم به جميع وسائل الاتصال الجماهيرية. إلا أنَّ المنبر يتفوق علي هذه الوسائل في أنَّ رجع الصدى فيه يكونُ آنياً ومتزامناً مع تقديم الرسالة، مما يجعله أقوى في توظيف هذا المردود في إكمال الرسالة بالشكل الذي يفهمه ويرتضيه المتلقي. ولذلك فهو يستفيدُ من التغذية الراجعة "Feedback " أكثر من بقية وسائل الاتصال الجماهيرية التي سعت جاهدةً لنيلِ مثل هذا الشرف بجعل المردود آنياً ومباشراً. وبالتالي فإنَّ المنبر قد جعل إثراء الِرسالة الاتصالية من خلال معرفة رغبة المتلقي أو إدراكه للمضمون المراد توصيله أمراً حتمياً ومستديماً في كل الأوقات.

جدلية التقسيم الشكلي لوسائل الاتصال

عندما يركنُ علماءُ الاتصال والدارسون والمتعاملون مع أجهزة الإعلام الحديثة إلى المواصفات التقليدية والتقسيمات المتعارف عليها في إطار علم الاتصال يجب أن يعترفوا أنَّ هذه القوالب والمعطيات ليست مُنزهةً عن الخطأ، وأنها ليست القولَ الفصل في زمانٍ ظلَّ فيه العِلْمُ يتطور بشكلٍ أسرعَ من حركة التنظير والتأطير الأكاديمي. وعلى سبيل المثال نجدُ في جميعِ كتبِ الاتصال عبارةً وصلت إلى حدِّ الإجماع بأنَّ جهاز الهاتف "Telephone" يُعتبرُ وسيلةَ اتصالٍ ثُنائية وليس وسيلةَ اتصالٍ جماهيريةْ[1]. وظلت هذه المقولة تتكرر على مدارِ السنين كإحدى المُسلمات التي لا جدالَ فيها. ولكنْ في أحد المؤتمرات العلمية التي شارك فيها الباحث بجامعة بروناي دار السلام في العام 2000م ثارَ جدلٌ طويل بين الباحث وعددٍ من الأساتذة الأوربيين المهتمين بعلوم الاتصال والرياضيات والتربية. وكان الحديث حول جهاز الهاتف "Telephone" هل هو وسيلةُ اتصال ثنائية أم وسيلةُ اتصالٍ جماهيرية؟! وكان مما طرحه الكاتب أنَّ وصف التلفون بالثنائية ظلَّ مقبولاً طوال الحقب التي أعقبت اختراعَهُ على يد الأميركي جراهام بيل، "Graham Bell" وذلك لأنه قد ظلَّ جهازاً يربط شخصين بعيدين عن بعضهما يتحدثان عبره بشكلٍ مباشر. وهي مُحادثةٌ ثنائيةٌ تَنطبقُ عليها كُلُ مواصفاتِ الاتصال الثنائي التي عرَّفتها علومُ الاتصال واعتبرتها أفضلَ أشكالِ الاتصال الإنساني من حيثُ رجع الصدى المصاحب لبث الرسالة نفسها. واستمرَّ التطورُ التقني ليجعل من الهاتف وسيلةً ميسورة تخطت عقبات الأسلاك لتصبح جهازاً لاسلكيا أو رقمياً في السنوات الأخيرة. وقد أدى هذا الأسلوب مُهمته بشكلٍ أفضلَ بكثيرٍ مما كان في الماضي. ولكن هل ظلَّ الهاتف على ما هو عليه بعد هذه التطورات؟ بالطبع لا، حيثُ انتقل في السنوات الأخيرة من دوره التقليدي إلى دورٍ أكبر بكثير عندما أصبح هو الناقل الأساسي لعددٍ من الخدمات الإعلامية التي بدأت أولَ ما بدأت بنقل الإذاعات الخارجية من مواقع الأحداث إلى

---

[1] محي الدين عبد الحليم: الإعلام الإسلامي وتطبيقاته العملية، ط2 مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض، 1984م، صفحة 80.

[1] شيرلي بياجي، مرجع سابق، ص 232.

المســتمعين دون المرور بمرحلة الأســتديو. ثم جاءت شــبكةُ الإنترنت "Internet" العالمية التي جعلت من الهاتف أهم أدواتها على الإطلاق. حيثُ لا يمكن للإنسـان أن يتصـفح خدمات الإنترنت إلا إذا أوصـل جهازه بالشـبكة الداخلية Server التي يتعامل معها مثل "TmNet" أو غيرها من الشبكات العديدة المنتشرة حول العالم عن طريق الهاتف. ويساعد على هذا الاتصــال جهاز الموديم "Modem" المُدمج في جهاز الكومبيوتر والذي يقوم بتحويل الأصــوات إلى أرقام والحروف إلى ذبذبات ليســهل عملية انتقال المواد عبر الشــبكة. وإذا انقطع هذا الخط التلفوني في أي لحظةٍ من اللحظات تعذر اســتقبال الإنترنت إلى درجة الاستحالة. وإذا أدركنا أنَّ عدد المتصـفحين لشبكة الإنترنت يُقدر بثلاثة ملايين وخمسمائة ألف شخص في اللحظة الواحدة يمكن لأي عددٍ منهم أن ينخرط في شــبكة حوارٍ مفتوحة يتجادل فيها مع الآخرين بما يشــاء لأدركنا أنَّ الهاتف قد أصــبح أكبر من مجرد قناة اتصــالٍ ثنائي. [1] . ومن زاويةٍ أخرى أصــبح جهاز الهاتف أهمَّ وســيلةٍ في نقل المؤتمرات الحديثة التي تُسـمى بمؤتمرات الفيديو "Video Conferences"، حيث يشـارك في هذه المؤتمرات عددٌ غير محدود من الشـخصـيات من مختلف بقاعِ العالم. وتقومُ بإدارة هذه المؤتمرات محطات التلفزيون والإذاعة المنتشـرة في كل مكان. ويتبادل المشـاركون في هذه المؤتمرات الحوار حول كل الموضـوعات المطروحة للنقاش. ويتداخلون بشـكلٍ سـهلٍ وميســور ليتم الرد عليهم وقتياً من خلال شــبكة الحوار المتصــلة بجميع أنحاء العالم. وليسَ أمامَ أي واحدٍ منهم غير جهاز التلفون. ونفسُ هذا الأسـلوب لجأت إليه برامج الإذاعات في معظم بقاع العالم لإدارة ما يُسـمى ببرامج الاتصــالات الهاتفية "Call Inns" ، التي يقومُ فيها أحدُ الأشخاص بإدارة الحوار وتنظيم الفرص بين عشرات المشاركين من المستمعين الذين لا يربطهم أي رابط جغرافي ســوى جهاز الهاتف وموجات الأثير. وقد ذهب جهاز الهاتف إلى أبعد من ذلك عندما ظهرت في السـنوات الأخيرة من عقد الثمانينيات والتسـعينيات العديدُ من الحفلات الموسـيقية التي اعتمدت على التلفون وحده كقناةٍ لنقل الاحتفالات حيةً على الهواء، وذلك مُقابِلَ مبلغٍ زهيدٍ من المال يدفعه المشــتركون للجهات المنظمة للاحتفال. وقد مَكَّنَ هذا الأسـلوب آلاف المسـتمعين من التقاط هذه الحفلات الموسـيقية في نفس اللحظة التي تُقدمُ فيها على خشـبةِ المسـرح. فهل يمكن أن نُسمي الهاتف بعد كل هذا جهاز اتصالٍ ثنائي مثلما وصفته كتب الاتصال القديمة؟ قطعاً إنَّ في الأمر نظر. وسنظلُّ ندعو إلى تغيير هذا المفهوم القديم للهاتف بحكم وجود أدلةٍ كثيرة غير التي سقناها في سياق هذا العرض.

وعلماءُ الغرب هم الذين قاموا بتقسيم وسائل الاتصال إلى مكتوبة وإلكترونية وحددوها بالسبعة التي أشرنا أليها آنفاً، وأضــاف إليها أحدُهم وهو جون فيفيان "John Vivian" في أواخر عقد التســعينيات المنصــرم شــبكة الإنترنت لتكون الوسـيلةَ الخامسـة في الوسـائل الإلكترونية، وبذلك يُصـبحُ العدد الكُلي ثماني وسـائل اتصــالٍ جماهيرية. وعندما أضــاف الأميركي جون فيفيان "John Vivian" شــبكة الإنترنت للوســائل الجماهيرية لم يسـتأذن الآخرين، وإنما أضــافها بحكم استقرائه لمقوماتها وخصائصها التي تؤهلها لهذه الإضافة. وأوضح ذلك من خلال وجهة نظره عندما وضع لها فصلاً كاملاً

[1] أنظر تقرير شبكة ياهو Yahoo الأميركية عن استخدام الإنترنت لعام 2000م، والذي صدر في يوم 31 ديسمبر 2000م.

في كتابه "The Media of Mass Communication" "وسائل الاتصال الجماهيرية" الذي صدر في عام 1997م [1]. وحسناً فعل جون فيفيان الذي لم يتقيد بالأطُر والقوالب التقليدية، وإنما أعمل فكره كأحد الرواد الشباب من أساتذة علم الاتصال. وسرعان ما حذا حذوه كُتَّابٌ آخرون مثل جوزيف ر. دومنيك "Joseph R. Dominick" ، وشيرلي بياجي "Shirley Biagi" في حين أغفل إضافتها كتابٌ آخرون مثل وارن آجي "Warren K. Agee" بجامعة جورجيا، وفيليب أولت "Phillip H. Ault" من مؤسسة ساوث بِنْت تريبيون الاتصالية، وإدوين إمِري "Edwin Emery" من جامعة منسوتا [2]، حيثُ لم يُضيفوا شبكة الإنترنت إلى وسائل الاتصال الجماهيرية في مؤلفاتهم التي صدرت بعد عام 1997م وذلك رغماً عن دور هذه الشبكة المعتبر وبروزها المبكر نسبياً منذُ عام 1969م. ولكن الذي يهمنا في هذا السياق هو دعم موقفنا في قضيتنا المطروحة في هذه الدراسة وهي اعتبار المنبر وسيلة اتصال جماهيرية دون الخوف من أنَّ عُلماء الاتصال والمنظرين لم يعترفوا بها بعد. ونحنُ عندما نطرحُ هذا الأمر نعلمُ أنه أمرٌ حساسٌ وخطيرٌ للغاية خصوصاً لدى المنظرين الغربيين. ولكننا نطرحه إحقاقاً للحق، وسعياً وراء التأطيرِ العلمي المنزه عن الغرض، والقائم على أساس الحُجَجِ والبراهين وليس على أساس الإثارة أو الانحياز لقضايا أمةٍ من الأُمم أو عقيدةٍ من العقائد. وقطعاً فإنَّ علم الاتصال لا يُشرفُهُ أنْ يَظلَّ بمنأى عن حقائق الإنجازات البشرية ما دامَ هو علماً من أجل البشرية. ولسنا في هذا الأمر مُثيرين لجدلٍ عقيم، أو ساعين لتغذية خلافٍ مذهبي، أو تنقيصٍ من قَدْرِ الآخرين، وإنما كل الذي نسعى إليه أن يتجنبَ أهلُ العلمِ التدليس ما داموا على جادة الطريق ، والكيلَ بمكيالينِ وهذا الفعل قد أضرَّ بقضية العدالةِ عندما تبنتها أجهزة السِّياسة العالمية.

ولعلَّ في هذا الأمر استصحاباً للتطور العلمي القائم على أساس الحياد والنزاهة وسرد الحقائق بدلاً عن التهميش الناتج عن الغرض. ولا شكَّ أنَّ في مثلِ هذا الحيادِ تقديراً للعلم ذاتِه ما دام قائماً على الحقيقة ولا شيء سواها. ولعل غياب المعلومات أو تغييبها خلال القرون الماضية في كثيرٍ مما يخص التاريخ الإسلامي والواقع الإسلامي والرؤى الإسلامية قد أدى إلى كثيرٍ من التناقضات التي أدَّت إلى ظهورِ عُلومٍ ناقصة وقاصرة، ولم تَفِ بالغرض الذي أُقيمتْ من أجله. وهنا تأتي مسئوليةُ علماءِ الاتصال الذين يعنيهم هذا الأمر فماذا هم قائلون؟

إنَّ هذا الطرح لقضية المنبر لم ينبع من فراغ، وإنما جاء نتيجةَ استقراءٍ طويل للحقائق والمعلومات، ومن خلال الإيمان بقضية التأطير لعلم الاتصال نفسه الذي ما زال في طور البناء بحكم أنه أحدث العلوم الإنسانية التي لم تكتمل حلقاتها بعد بحكم نشأته الحديثة في عام 1948م [1]. ولما كان هذا العلم قد ظلَّ لعقودٍ طويلة في أيدي العلماء الغربيين فقد ركزوا كل اهتمامهم على التجارب الغربية، في حين أنَّ عملية الاتصال عمليةٌ إنسانية بدأت مع بدء الخليقة وتطورت مع

---

(1) John Vivian, The Media of Mass Communication, Fourth Edition, Allyn and Bacon Boston.

(2) أنظر كتاب المدخل لوسائل الاتصال، تأليف وارن آجي، وفيليب أولت، وإدوين إمري، لونغمان، نيويورك، 1997م ، ص 110-150.

(1) نشأ علم الاتصال الحديث علي يد العالم الأميركي هارولد لاسويل في عام 1948م من خلال مقاله الشهير الذي صاغه بعنوان تنظيم ومهام الاتصال في المجتمع، وقد وجه فيه الأسئلة الخمسة التي اعتُبرت بداية علم الاتصال وهي: مَنْ؟ يقولُ ماذا؟ لمن؟ بأية قناة؟ وبأي أثر؟

تطور البشرية. ولم يكن للغرب وجودٌ آنذاكَ في ظاهرِ الحضاراتِ القديمة. وقضية الاتصال في الواقع ليست أمراً جِهوياً يمكن طلاؤه بمسحة الشرق أو الغرب أو بنزعةٍ عنصريةٍ أو عقديةٍ أو آيديولوجيةٍ تنزع إلى استبعاد هذا العنصر أو ذاك وفقاً لمُقتضى الحال. وفي واقع الأمر إنَّ هناكَ كثيراً من التجاهل لأمور الشعوب غير الغربية لاسيما المسلمين عند التأطير للعلوم الحديثة. حيثُ تعوَّد الغربيون على تجاهل التجارب الإسلامية بشكلٍ مُتعمد. وقد غذت كراهيتهم المستفحلة تجاه المسلمين تلك النزعة التي بدأت منذُ مؤتمر بازل بسويسرا في عام 1897م والذي تم فيه وضع بروتوكولات صهيون "Protocols of Zion". بل قد تعودُ إلى ما هو أبعد من ذلك حين تمَّ سقوط غرناطة التي زالت بسقوطها دولةُ الأندلس، وانطوت صفحةٌ من أنصع صفحات أوربا لتبدأ مرحلةٌ جديدة من الهوس العدائي للمسلمين. ورغم أنَّ العارفين لبواطن الأمور من الأوربيين أنفسهم يُدركون حجم الدور الذي لعبه المسلمون في نقل مختلف العلوم الإنسانية إلى أوربا عبر الأندلس ، إلا أنَّ الأوربيين قد حاولوا قدر المستطاع طمس هذه الحقائق إلا ما استعصى عليهم. وحاولوا إزالة المعالم التاريخية الدالة على النهضة الإسلامية في طُليطِلَة، وأشبيلية، وغرناطة. ونسوا أنَّ كل المعطياتِ الثقافية التي أزكت مناظراتهم مع علماء "فاس" فيما بعد والتي استمرت لأعوامٍ وأعوام قد كانت بفضل تلك الانتقالة التي أزكى شرارتها علماءُ المسلمين. وبعد أن اضمحلت الحضارة العربية في الشرق بعد مجيء التتار بقيادة "هولاكو" وانكسرت شوكة العلوم في كثير من الأمصار استمرت في بلادهم وبلاد المغرب العربي لا لشيء إلا لصدى الحضارة الإسلامية في الأندلس التي خلدت من خلال مختلف الفنون خصوصاً فن العمارة الذي ظهر في "مسجد مرَّاكِش" و "مسجد الرباط" و "مسجد غِرناطة". وهو المسجد الذي تحول إلى كنيسة وقُطعت مئذنته ووضع في مكانها الصليب. وفي داخله أُقيمَ قبرٌ للرحالة "كريستوفر كولمبس" الذي اكتشف قارة أميركا وغيره من المشاهير. كما هُدِمَتْ الحماماتُ العربية التي أنشأها المسلمون وكذلك القصور التي لم يُستَنقَذْ إلا بعضُها مثل "قصر الحمراء" وقصر "الكزار" في قُرطُبة[1]. ونسي أولئك الأوربيون دور المسلمين في خلق نهضتهم الحديثة رغم أنهم ينظرون يومياً لما بقي من آثار تلك الحضارة التي بقيت رغم أنفهم مثل تمثال العالِم الإسلامي الكبير "ابن رُشد" الذي كثر تلاميذُهُ من المسلمين، ثم ظهر له عددٌ من التلاميذ اليهود والمسيحيين وعلى رأسهم تلميذه اليهودي "موسى بن ميمون" وعدد كبير من الذين تأثروا به من كبار المفكرين المسيحيين في كنيسة روما الكاثوليكية. كما ينظر الأوربيون إلى تاريخ المسلمين في بلادهم من خلال التمثال الضخم في إسبانيا الذي يُصورُ اليد اليُمنى للشاعر المبدع "ابن زيدون" وهو يُمسكُ بيد محبوبته "ولادة بنت المستكفي" رمزاً للعشق الإنساني الخالد [2] .

---

[1] من حديث الأستاذ الدكتور مدثر عبد الرحيم الطيب في كتاب (لهبٌ من نار المجاذيب)، تأليف د. عوض إبراهيم عوض، تحت الطبع.

[2] المرجع السابق.

إنَّ نزعة العداء الغربي المستفحل ضد الإسلام ليست أمراً جديداً، وإنما دعمتها وغذتها العديد من المواقف السابقة واللاحقة في جميع الاتجاهات السياسية والفكرية والعقدية والعلمية. حتى خرج رئيسُ الحكومة الفرنسية بقوله بالعبارة الواضحة في رده على محاولات تركيا الانضمام لمنظمة البُلدان الأوربية: " إنَّ المنظومة الأوربية لا يمكنها قبول تركيا بأي حالٍ من الأحوال لأنها بلدٌ مسلم، وبلاد أوربا بلادٌ مسيحية لا تقبلُ اعتناقَ الإسلام " هكذا وبكل بساطة لخصَّ الأوربيون قضية الإسلام الذي جاء للبشريةِ كافةً وليس لأبناء الدول غير الأوربية، رغم أنَّ أول من نقل لتركيا المسلمة نزعة القومية هم اللاجئون البولنديون والمجريون حينما دخلها الكونت قسطنطين بورزيسكي "Constantin Borziskey" الذي اعتنق الإسلام ونشر كتاباً لتوضيح تلك الحقائق في عام 1869م أسماه "أتراك الأمس وأتراك اليوم"[1]. ولذلك فقد تجاهل الغربيون دور الإسلام، وطمسوا الحقائق التي تؤكِّد ذلك الدور في تحريك دولاب العلوم والثقافة والسياسة في أوربا. وتجاهلوه من خلال إسقاط حق الدولة الإسلامية في أن يكون لها صوتٌ دائم في مجلس الأمن، وتجاهلوه بحرمان أي بلدٍ مسلم من حق النقض "Veto"، وتجاهلوه عندما حاولوا التأطير لنظريات الإعلام التي حصروها في أربعِ نظريات ليس للإسلام بينها موقع، وتجاهلوه عندما قسموا الجوائز العالمية للإنجاز الإنساني مثل جوائز نوبل، وتجاهلوه عندما تقاسموا الأدوار في تنظيم المهرجانات الرياضية العالمية كالأولمبياد وغيرها. وفي نهاية المطاف قضوا عليه عندما شعروا بأنَّ دور المسلمين قد بدأ يتعاظم في منظمة الأمم المتحدة، وذلك في دورة المنظمة لعام 1974م حيثُ أُعلنت الدعوة التي قدمها الرئيس الجزائري الراحل هواري بومدين لإعادة النظر في النظام العالمي وضرورة إعادة تشكيله على نسقٍ عادل خصوصاً في مجالي الاقتصاد والإعلام. وفي ذلك الوقت كان بين الدول الإسلامية والعربية والأفريقية وغيرها من بلاد ما سُمِيَ بالعالم الثالث ترابطٌ شديد وتعاضدٌ وثقةٌ بالنفس لا تحدها حدود، مما مكنهم من تمرير كل القرارات التي اتفقوا عليها داخلَ الجمعيةِ العامة للأمم المتحدة والهيئات الأخرى التابعة للمنظمة الدولية. وكان الغربيون بالمقابل قد تضعضعوا في تلك المرحلة غاية التضعضع، وبدأوا يتحدثون بشكلٍ علني عن الأغلبية الميكانيكية التي تؤدي لتمرير القرارات في الأمم المتحدة، وذلك عندما شعروا بأنّ معظم المستعمرات السابقة والتي استقلت وأصبحت ذات عضوية بالمنظمة الدولية قد بدأت تتكتل ضدَّ الدول الغاصبة التي أذلتها في الماضي. وبدأ الغربيون يفكرون جدياً في ضرورة تحجيم هذه المنظمة التي أعطت مثل هذا الحق للمسلمين والمستضعفين لينتقموا من صلف المستعمرين الذين ساموهم أشد أنواع العذاب.

ولكل هذه الأسباب يرى الباحثُ أنَّ على المسلمينَ أن يقوموا بأنفسهم بوضع الأُطُر للعلوم التي لهم يدٌ في تأسيسها أو إضافة معطياتهم التي لا تتعارض مع الحقائق. وبذلك يمكننا أن نضمنَ عدمَ التجني على الواقع، ونحفظُ دورنا التاريخي في

---

[1] برنارد لويس، الغرب والشرق الأوسط، من كتاب د. يوسف محي الدين أبو هلالة ، الإعلام في ديار الإسلام، بداية ورسالة، دار العاصمة، الرياض، 1408هـ، ص97.

مجالات العلوم الإنسـانية. ولا بد أيضـاً من وضـع هذه الحقائق والمعلومات ضـمن المناهج التعليمية والمؤلفات التي نقومُ بتدريسها في مؤسساتنا العلمية حتى لا تنطلي على أجيالنا القادمة أُطروحاتُ المدلسين وذوي الغرض سواءٌ كانوا غربيين أو شرقيين. حيث إنَّ لبعضِ الشرقيين أيضاً دوراً في طمسِ الحضارة الإسلامية استفحل إبانَ سطوة النظرية الماركسية - التي تلاشت الآن -وعدائها السافر للإسلام. ولهذا أيضاً يجبُ طَرْحُ هذه الحقائق والدفاعِ عنها في كل المحافل والأوساط العلمية الدولية حتى يتم الاعتراف بها من أجل الحقيقة والتاريخ.

الخلاصة

لعل مما حدا بهذه الورقة أن تؤطِّر لقضـــية المنبر هو إغفال كثيرٍ من الكُتَّاب الغربيين والمســلمين على الســواء له كوسيلةٍ مميزة من وسائل الاتصال. والقيمة المستقاةُ من واقع المنبر القُدسي تجعلُ من الإعلام وسيلةً مهذبة تصلُ إلى قلوب الناسِ بشكلٍ مباشـر. وكأنَّ الشـارع الإسـلامي قد أراد من البداية أنْ يهذب وسـائل الاتصـال التي عَلِمَ أنها ستَفْجُر وتُصـبحُ سـافرةً وعديمة الأخلاق في خصـومتها للقيم الإنسـانية جرياً وراء الربح المادي. ولذلك لا يمكننا أن نستثني من هذا التردي الأخلاقي أيَّ وسيلةٍ غير المنبر الذي حافظ على كيانه الأخلاقي على مرّ الأعوام بحكم تفرده الذي أشرنا إليه من خلال هذه الدراسة.

وبوضـع المنبر في مكانه الصـحيح وسط وسائل الاتصـال الجماهيرية يكونُ الإعلامُ قد أدى دوره المطلوب كمراقبٍ لقضـية الإنسـان التي تمحورت عبر الدهور سـاعيةً لتنظيمِ أدبِ السلوك، وداعيةً إلى خير الإنسانية جمعاء، وبث المعلومات بشكلها الصحيح. وهذا وحده يجعل من الإعلام أداةً مُتصالحةً مع النفسِ البشرية ، وتستحق كل هذا الاهتمام الذي أولته إياه الأمم على اختلاف مشاربها وألوانها، واللهُ من وراء القصد.

المراجـــع

1- تقرير شبكة ياهو Yahoo الأميركية عن استخدام الإنترنت لعام 2000م، والذي صدر في يوم 31 ديسمبر 2000م.

2- حامد عبد الواحد : الإعلام في المجتمع الإسـلامي، سـلسـلة دعوة الحق ، ط إدارة الصـحافة والنشـر، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة 1984م.

3- خير الأسماء شافعي: دور المسجد في بناء الحضارة الإسلامية، دراسة بحثية غير منشورة 2000م.

4- الشيخ طوالبي: المساجد في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت 1988م.

5- عبد الله قاسم الوشلي: المسجد ودوره التعليمي عبر العصور من خلال الحلقات العلمية، ط/1 مؤسسة الرسالة، بيروت 1988م.

6- عبد العزيز محمد اللميم : رسالة المسجد في الإسلام ، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت 1991م.

7- علي عبد الحليم محمود: المسجد وأثره في المجتمع الإسلامي ، ط / دار المعارف المصرية، القاهرة.

8- عوض إبراهيم عوض: المدخل إلى وسـائل الاتصـال الجماهيرية ، ط/ دار يونيفيزيون للطباعة والنشـر، كوالا لمبور1999م.

9- عوض إبراهيم عوض: لغة الإذاعة دراسة تحليلية، ط دار النشر جامعة الخرطوم 2001م.

10-عوض إبراهيم عوض: الإذاعة السودانية في نصف قرن، دار لخرطوم للطباعة والنشر، الخرطوم 2000م.

11- عوض إبراهيم عوض : لهب من نار المجاذيب، تحت الطبع.

12- محاضـير محمد: الإسـلام الذي أُسـيء فهمه، ترجمة د. عوض إبراهيم عوض، ط المركز العربي الأفريقي سـنديرن برهد، كوالالمبور1996م.

13- الشـيخ محمد أبو زهرة: الخطابة أصـولها تاريخها في أزهر عصـورها عند العرب ، ط دار الفكر العربي، القاهرة 1934م.

14- محمد مختار علي : دور المسجد في الإسلام، مطبوعات رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة 1402 هجرية.

15- محمد علي التهانوي: موسـوعة كشـاف اصـطلاحات الفنون والعلوم ج 2 : تحقيق علي دحروج، بيروت مكتبة لبنان ناشرون 1996م.

16- محمود علي عبد الحليم: المسجد وأثره في المجتمع الإسلامي، دار المعارف المصرية، القاهرة بدون تاريخ.

17- محمود محمد قلندر:الاتصـال الجماهيري النظريات والوسـائل والنماذج ، ط دار يونيفيزيون للطباعة والنشـر، كوالا لمبور ، 1999م.

18- محي الدين عبد الحليم: الإعلام الإسـلامي وتطبيقاته العملية، ط /2 مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض 1984م.

19- ابن منظور: لسان العرب.

20- وارن آجي، وفيليب أولت، وإدوين إمري، لونقمان: المدخل لوسائل الاتصال، نيويورك 1997م.

21- يوسف محي الدين أبو هلالة: الإعلام في ديار الإسلام، بداية ورسالة، ط دار العاصمة، الرياض 1408هـ.

مراجع بالإنجليزية

1- Awad, I .Awad, Communication Law and Ethics, Univision, Kuala Lumpur.

2- Boyd, Andrew, Broadcast Journalism: Teaching of Radio and TV Laws, London: Heinemann 1990.

3- Cooper, L. The Rhetoric of Aristotle, Quoted in Martin & Chaudhary, Comparative Media Systems New York: Longman.

4- John Vivian, , The Media of Mass Communication, Fourth Edition, Allyn & Bacon, Boston 1999.

5- Joseph R. Dominick, The Dynamics of Mass Communication, Sixth edition, McGraw-Hill College 1999.

6- Marshal Mcluhan, The Medium is the Message, New York, Pantam 1967.

7- Shirley Biagi, The Media Impact, Wardsworth Publishing Company, Washington 1997.